دراسة عقدية في

أحوال المحتضر

إعداد

أ. د. محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة في كلية أصول الدين

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

دار طيبة

ⓒ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العلي ، محمد عبدالعزيز

دراسة عقدية في أحوال المحتضر. / محمد عبدالعزيز العلي .- الرياض ، ١٤٣٠هـ

١٣٦ص ، ١٧ x ٢٤سم

ردمك: ٧-٨١-٨٠٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- الموت ٢-الوعظ والإرشاد أ- العنوان

ديوي: ٢٤٣ ٦٢٢١ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٦٢٢١ / ١٤٣٠

ردمك: ٧-٨١-٨٠٠٣-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار طيبة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي

ش. السويدي العام - غرب النفق - ص. ب ٧٦١٢

الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٣٧٣٧ (٦ خطوط) فاكس ٤٢٥٨٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى يله وصحبه.

أما بعد:

فإن معرفة الاحتضار ودراسة أحوال المحتضر، الثابتةِ في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، من أصول الإيمان عند أهل السنة والجماعة، التي بمعرفتها والإيمان بها يحصل صلاح الباطن المترتِّب عليه صلاحُ الظاهر واستقامة السلوك، وقد لَحَظْتُ خُلُوَّ المكتبة الإسلامية من كتاب يحقق أحوال المحتضر، فيُثبت ما ثبت في النصوص الشرعية، ويترك ما لم يثبت في مصدريِ التلقِّي، فلم تفرَد – حسب علمي – أحوالُ المحتضر، مع أهميتها العقدية والشرعية، في كتابة مستقلة محقَّقة، وإنما وُجدت منثورة في بعض الكتب التي تحدثت عن الموت واليوم الآخر، ودون تحقيق وتمحيص، يثبت ما أثبته الشارع من تلك الأحوال، ويستبعد ما يذكره بعض الوعَّاظ والقصَّاص من الأمور التي ليس لها سند من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؛ ولذا عقدت العزم على جمع مسائل هذا الأمر العظيم، وتحقيقها، إسهامًا في نشر عقيدة أهل السنة والجماعة، وزيادةً في نشر العلم الشرعي، وعظةً وعبرة لأولي الألباب.

وقد بدأت هذا البحث بمقدمة ذكرت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره إجمالاً، ثم كتبت تمهيدًا عرَّفت فيه بألفاظ الاحتضار والموت والوفاة، وبيَّنت فيه أن الموت حق لازم لكل مخلوق.

وبعد ذلك قسّمت البحث عشرةَ مباحث.

المبحث الأول: تحدثت فيه عن سكَرات الموت وغمراته، وجعلته في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: في تعريف السَّكرات والغَمَرات.

المطلب الثاني: في الأدلة من الكتاب والسنة على سكرات الموت وأقوال بعض أهل العلم في ذلك.

المطلب الثالث: بيان أن سكرات الموت تحصُل لكل المخلوقات، وأنها تختلف في درجة الإحساس بها.

المبحث الثاني: تحدثت فيه عن وصف حال تَوَفِّي الملائكةِ الكفارَ.

المبحث الثالث: كتبت فيه عن حضور الملائكة مع ملَك الموت لقبض الروح وتبشيرهم المحتضر، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ذكرت فيه أن مع ملك الموت ملائكةً يعاونونه في قبض الروح.

المطلب الثاني: بيان بشارة الملائكةِ المؤمنَ برضوان الله ورحمته، وفرحه بذلك.

المطلب الثالث: بيان بشارة الملائكة الكافر بالعذاب.

المبحث الرابع: تحدث فيه عن انقطاع التوبة بحضور الموت.

المبحث الخامس: بينت فيه أن العبد يطلب الرجعة إلى الدنيا عند الاحتضار.

المبحث السادس: تكلمت فيه عن حضور الشيطان عند العبد لإغوائه عند الاحتضار.

المبحث السابع: ذكرت فيه مشروعية تلقينِ المحتضِر: لا إله إلا الله وقولِ الخير عنده.

المبحث الثامن: تحدثت فيه عن وجوب إحسان الظن بالله تعالى، وبخاصة عند الموت.

المبحث التاسع: تحدثت فيه عن تخيير الأنبياء بين الحياة والموت.

المبحث العاشر: بيَّنت فيه أن الأعمال بالخواتيم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأدلة على أن الأعمال بالخواتيم.

المطلب الثاني: حسن الخاتمة وأبرز علاماتها.

المطلب الثالث: سوء الخاتمة وأبرز أسبابها.

ثم ختمت هذا البحث بخاتمة فيها خلاصتُه وأهم فوائده إجمالاً.

أسأل الله إخلاص النية وصلاح العمل.

الفصل السادس: ...

الفصل السابع: ...

الفصل الثامن: ...

الفصل التاسع: ...

الفصل العاشر: ...

الملحق ١: ...

الملحق ٢: ...

الملحق ٣: ...

التمهيد

تعريف: الاحتضار – الموت – الوفاة

الموت حق لازم لكل مخلوق

تعريف الاحتضار:

الحضور: نقيض المَغِيب والغَيْبة؛ يقال: حَضَر الرجل يَحْضُرُ حُضُورًا وحَضَارة، ويُعدَّى؛ فيقال: حَضَرَه، يَحْضُرُهُ، وأَحْضَرَ الشيءَ وأَحْضَرَه إياه، وكان ذلك بِحَضْرَةِ فلان وحَضْرَتِهِ، وحَضَرِه ومَحْضَرِه، وكلّمته بَحَضْرَةِ فُلان وبمَحْضَرٍ منه؛ أي: بمشهد منه.

وحَضْرَةُ الرجل: قُرْبه وفِناؤه، والحَضْرة: قُربُ الشيء، يقال: أُكْرِم فلانٌ بَحَضْرة فلان وبَمحْضَرِه، ويقال: حَضَرَتِ الصَّلاة.

ورجل حَضِرٌ وحَضُرٌ: يتحيّن طعام الناس حتى يَحْضُرَه، تقول العرب: اللبن مُحْتَضِرٌ ومَحْضُوْرٌ، فَغَطِّه؛ أي: كثير الآفة، يعني: يحتضره الجنُّ والدوابُّ وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨] أي: أعوذ بك من حضور الشياطين في شيء من أمري[(١)]

وحضره الهمُّ واحْتضره وتَحَضّرَه: إذا نزل به.

وحُضِر المريض واحْتُضِرَ: إذا نزل به الموت[(٢)].

نخلُص مما سبق إلى أن الاحتضارَ هو حضورُ الموت ونزولُه بالعبد.

تعريف الموت:

الموت: مصدر مات يموت موتًا ومَوَتانًا، وهو ضدّ الحياة، يقال: المَوْت والمَوَتان والمُوات، ورجل ميّت ومَيْت.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٤٧.

(٢) انظر: لسان العرب ١/ ٦٥٨-٦٥٩.

قال بعض أهل اللغة: المَيْت: الذي مات، والميّت والمائت: الذي لم يمُتْ بعد، فيقولون لمن لم يمت: إنه مائتٌ عن قليل وميِّت، ولا يقولون لمن مات: إنه مائِت.

والحق أنه هذا التفريق لا يصحُّ؛ فلفظ (ميّت) يصلُح لِمَا قد مات ولِمَا سيموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

والموت: السكون، وكلُّ ما سكن فقد مات، يقال: ماتت النار موتًا: إذا برد رمادها، فلم يبق في الجمر شيء، وماتت الريح: ركدت وسكنت[١].

والموت اصطلاحًا: قال القرطبي (ت ٧٦١هـ): «قال العلماء: الموت ليس بعدم محضٍ، ولا فناءٍ صِرف، وإنما هو انقطاع تعلُّق الروح بالبدن، ومفارقتُه، وحيلولة بينهما، وتبدُّل حال، وانتقالٌ من دار إلى دار»[٢].

تعريف الوفاة:

أصل الكلمة من الفعل (وفى) يفي وفاءً، فهو وافٍ، والوفاء: ضد الغدر، يقال (وفي) و (وفى) بالعهد وفاءً.

والوفاة: الموت، يقال: تُوُفي فلان، وتوفّاه الله: إذا قبض روحه، وقال بعض أهل اللغة: تَوَفِّي الميت: استيفاء مُدَّته التي وُفِّيت له، وعدد أيامه، وشهوره، وأعوامه في الدنيا، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، أي: يستوفي مُدَد آجالهم في الدنيا، وقيل: يستوفي تمام عددهم إلى يوم القيامة[٣].

---

(١) انظر: لسان العرب ١/ ٥٤٦،٥٤٧.

(٢) انظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ١٩.

(٣) انظر: لسان العرب ١/ ٩٦٠،٩٦١.

الموت حق لازم لكل مخلوق:

حضور الموت ووقوعُه حقٌّ لازم لكل مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وخاطب الله تعالى محمدًا ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أعوذ بعزَّتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت، والإنسُ والجنُّ يموتون**»[(١)].

وللموت وقت محدود عند الله تعالى، لا يستطيع أحدٌ من المخلوقات مجاوزتَه، فإنه مدرِكُه لا محالة، وملاقيه أين كان، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقال جل وعلا: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، ونحو ذلك من الآيات.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب (٧) ح ٧٣٨٣.

نعم. إن كلَّ نفس ميتة، والسعيد الفائز من زُحزح عن النار وأُدخل الجنة، وأنت يا عبد الله «في وقت بين الوقتين، وهو في الحقيقة عمرُك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يُستقبل، فالذي مضى تُصلِحُه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصَبَ، ولا معاناةَ عمل شاقٍّ، وإنما هو عملُ قلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعُك تركٌ وراحة، ليس هو عملاً بالجوارح يشقُّ عليك معاناتُه، وإنما هو عزمٌ ونية جازمة، تريح بدنك وقلبك وسِرَّك، فما مضى تُصلِحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نَصَبٌ ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين؛ فإن أضعتَه أضعتَ سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذَيْن قبلَه وبعدَه بما ذُكر نجوتَ وفُزت بالراحة واللذة والنعيم، وحفظُه أشقُّ من إصلاح ما قبلَه وما بعده، فإنَّ حفظه أن تلزم نفسك بما هو أَوْلى بها، وأنفعُ لها، وأعظم تحصيلاً لسعادتها، وفي هذا تفاوتَ الناسُ أعظمَ التفاوت، فهي والله أيامُك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك؛ إما إلى الجنة، وإما إلى النار؛ فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمى، والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة، التي لا نسبةَ لها إلى الأبد، وإن آثرتَ الشهوات والراحات واللهو واللعب، انقضت عنك بسرعة، وأعقبَتْك الألمَ العظيم الدائم، الذي مقاساتُه ومعاناته أشقُّ وأصعب، وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله، والصبرِ على طاعته، ومخالفة الهوى لأجله»[1].

---

(١) انظر: كتاب الفوائد، ص ١١٦، ١١٧.

المبحث الأول

سكرات الموت وغمراته

المطلب الأول: تعريف السكرات والغمرات

أولاً: تعريف السكرات:

السكرات: جمع سَكْرة، مأخوذةٌ من الفعل سَكِرَ يَسْكَرُ سُكْرًا وسُكُرًا وسَكْرًا وسَكِرًا وسَكَرَانًا، فهو سَكِرٌ وسَكْرانُ، والأنثى سَكِرَةٌ وسَكْرَى وسَكْرَانةٌ، والجمع سُكَارَى وسَكَارَى وسَكْرَى.

والسَّكْرَانُ: خلاف الصاحي، والسُّكْرُ: نقيض الصَّحْوِ، وقولهم: ذهب بين الصحوة والسَّكرة إنما هو بين أن يعقِلَ ولا يعقِل.

وسكرة الموت: شدّته، وسكرة الميت: غشيته التي تدل الإنسانَ على أنه ميّت[1].

قال الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢): «السُّكر: حالة تعرض بين المرء وعقله، وأكثرُ ما يستعمل في الشراب المسكر، ويُطلق في الغضب والعشق والألم والنُّعاس، والغشي الناشئ عن الألم، وهو المراد هنا»[2].

فالمراد بالسكرات إذن: شدائد الموت وأهواله وكُرَبُه التي تصيب المحتضر، بسبب نزع الروح.

ثانيًا: تعريف الغمرات:

الغَمَرات جمع غَمْرَة، وهي الشدة، وغَمْرةُ كلِّ شيء: مُنْهَمَكُه وشدّته، كغمرة الهم والموت ونحوهما، وغَمَراتُ الحرب والموت وغَمَارُها: شدائدها.

---

(١) انظر: لسان العرب ٢/ ١٧٠، ١٧١.

(٢) انظر: مفردات القرآن ص ٢٣٦، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ١١/ ٣٦٢.

وأصل الغَمْر: الماء الكثير؛ يقال: ماء غَمْرٌ؛ أي: كثيرٌ مُغرِّق بيِّن الغُمورة، وغَمَره الماء يَغْمُرُهُ غَمْرًا واغتمره: علاه وغطَّاه، ومنه قيل للرجل: غَمَرَه القوم يَغْمُرونه: إذا علَوْه شرفًا، وجيش يغتمر كل شيء: يغطيه ويستغرقه[١].

قال الطبري (ت ٣١٠هـ): «والغَمَرات: جمع غمرة، وغمرة كل شيء: كثرتُه ومعظمه. وأصله: الشيء الذي يغمر الأشياء، فيغطيها»[٢].

وغمرات الموت: سَكَراته التي تغمُر المحتضر؛ أي: تغطي عقله وتستره، فيصاب بالغمرة والإغماء[٣].

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة على سكرات الموت

أولاً: الأدلة من كتاب الله تعالى:

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، القرآن العظيم، سكراتِ الموت وشدائدَه في أكثرَ من آية؛ منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: ولو ترى يا محمد حين يغمر الموتُ بسكراته هؤلاء الظالمين...، فتعاينَهم وقد غشِيَتهُم

---

(١) انظر: لسان العرب، ٢/ ١٠١٣، ١٠١٤.

(٢) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٧/ ١٨٢، ١٨٣.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ص ٦٧٨.

سكرات الموتُ، ونزل لهم أمر الله، وحان فَناءُ آجالهم. والغمرات: جمع غمرة، وغمرةُ كلِّ شيء كثرتُه ومُعظمُه»[١]، ثم روى عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾. أنه قال: سكرات الموت[٢].

يقول السعدي (ت ١٣٧٦هـ): «ولَـمَّا ذم الظالمين، ذكر ما أعدَّ لهم من العقوبة حال الاحتضار، ويوم القيامة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكُرَبُه الشنيعة، لرأيت أمرًا هائلاً، وحالةً لا يقدِر الواصفُ أن يصفَها ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب..»[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨-١٩].

٣- وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ

---

(١) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٧/ ١٨٢.

(٢) المصدر السابق ٧/ ١٨٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٢٢٧.

عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢٠-٢١].

فقوله تعالى في الآية الأولى: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ يعني: ينظرون إليك يا محمد ﷺ تدور أعينهم خوفًا من القتل وفرارًا منه، كالذي يُغشى عليه من الموت؛ أي: كدوران عين الذي يُغشى عليه من الموت النازل به، وما يعانيه من سكرات وكُرَبٍ[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): «من شدة الرعب الذي في قلوبهم يُشبهون المغمى عليه وقتَ النزع؛ فإنه يخاف، ويذهَل عقلُه، ويشخَصُ بصرُه، ولا يطرِف، فكذلك هؤلاء؛ لأنهم يخافون القتل»[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

والمراد بسكرة الموت: شدته وغمرته وغلَبَتُهُ التي تغشى الإنسان وتغلِب على عقله، ومعنى (بالحق) أي: من أمر الآخرة، فتبيِّنه الإنسان حتى تثبَّته وعرفه، بمعنى أنه عند الموت يتَّضح له الحق، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث، والوعد والوعيد، وقيل: الحق هو الموت، فيكون المعنى: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت، كما قرأ أبو بكر الصديق وابن مسعود: (**وجاءت سكرة الحق بالموت**)[٣].

---

(١) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٢١/ ٨٩.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٢٨/ ٤٥٦.

(٣) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٢٦/ ١٠٠-١٠١، وفتح القدير ٥/ ٧٥.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحقُّ الذي أخبرت به الرسل، ليس مرادُه أنها جاءت بالحق الذي هو الموت؛ فإن هذا مشهورٌ لم ينازَع فيه، ولم يقل أحد: إن الموت باطلٌ حتى يقال جاءت بالحق»[(١)].

٥- قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧]. هذا دليل على سكرات الموت[(٢)]؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول: مهلاً، إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجسادكم، أيها الناس، حلاقيمكم، ومن حضرهم منكم من أهليهم حينئذ إليهم ينظر، ونحن أقرب إليه بالعلم والقدرة والرؤية منكم، ورُسُلنا الذي يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مربوبين ومملوكين وغير مجزيِّين ترجعون تلك النفوس التي بلغت الحلقوم عند سكرات الموت إلى مقرِّها الذي كانت فيه، إن كنتم صادقين بأنكم غير مربوبين ولا مجزيِّين، ولن ترجعونها، فبطَل زعمكم[(٣)].

قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في تفسير هذه الآيات: «يقول تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أي: الروح ﴿ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ أي: الحلق، وذلك حين الاحتضار، كما قال

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٤/ ٢٦٥.

(٢) انظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٤١.

(٣) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٢٧/ ١٢٠-١٢١، ومعالم التنزيل ٤/ ٢٩٠-٢٩١.

تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠]؛ ولهذا ههنا ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي: إلى المحتضر، وما يكابده من سَكَرات الموت ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: بملائكتنا ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي: ولكن لا ترونهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ﴾ معناه: فهلَّا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها من الجسد، إن كنتم غيرَ مدينين»[(١)].

٦- وقد روى ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) عن جماعة من السلف أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ١،٢]: الملائكة حين تنْزع أرواح بني آدم، فمنهم من تُؤخذ روحُه بعُسر، فتغرق في نزعها، ومنهم من تُؤخذ روحُه بسهولة، وكأنما حلَّته من نشاط[(٢)].

وقال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): «وأما ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ فهي الملائكة القابضة للأرواح، وهذا يتضمن الجزاء، وهو من أعظم المقسَم عليه»[(٣)].

وقال البغوي (ت ٥١٦هـ): « ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾: يعني: الملائكة تنْزع

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٠١.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٤٦٨.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ١٣/ ٣٢٠.

أرواح الكفار من أجسادهم، كما يغرق النازع في القوس، فيبلغ بها غايةَ المدّ، وقال ابن مسعود: ينْزعها ملَكُ الموت من تحت كل شعرة، ومِنَ الأظافر وأصول القدمين، ويردِّدها في جسده بعدما ينْزعها، حتى إذا كانت تخرج ردَّها في جسده بعدما ينْزعها، فهذا عملُه بالكفار، ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ هي الملائكة تنشط نفس المؤمن؛ أي: تحُلُّ حلاً رفيقًا فتقبضها، كما ينشط العقال من يد البعير؛ أي: يحل برفق»[1]. وروي في تفسيرها غير ذلك[2].

٧- قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

دلت هذه الآية على سكرة الموت؛ فقوله ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: النفس ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ فحشرج بها عند سكرات الموت، والتراقي جمع التَّرْقُوة، وهي العظام بين ثغرة النحر والعاتق، فدل ذلك على الإشراف على الموت، ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي: أيقن الذي بلغت روحُه التراقيَ أنه مفارقٌ الدنيا، حيث تتابعت عليه الشدائد، فلا يخرج من كرْب إلا جاءه أشدُّ منه، واجتمع فيه الحياة والموت، والتَّفت ساقاه[3].

يقول السعدي في تفسير هذه الآيات: «يعظ تعالى عباده بذكر المحتضِر حال السياق، وأنه إذا بلغت روحُه التراقيَ، وهي العظام المكتنفةُ لثُغرة النحر، فحينئذ يشتدُّ الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة؛ ولهذا

---

(1) انظر: معالم التنزيل ٤/ ٤٤١.

(2) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٣٠/ ١٨-٢٠، ومعالم التنزيل ٤/ ٤٤١-٤٤٢.

(3) انظر: معالم التنزيل ٤/ ٤٢٤-٤٢٥، وجامع البيان في تفسير القرآن ٢٩/ ١٢١.

قال: ﴿ وَقِيلَ مَنۜ رَاقٍ﴾ أي: من يرقيه، مِنَ الرُّقية؛ لأنهم انقطعت آمالُهم من الأسباب العادية، فتعلقوا بالأسباب الإلهية، ولكن القضاء والقدر إذا حتم وجاء، فلا مرد له، ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ للدنيا، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد، والتفَّت، وعظُم الأمر، وصعُب الكرب، وأريد أن تخرج الروح من البدن الذي أَلِفَتْه، ولم تزل معه، فتُساقُ إلى الله تعالى؛ ليجازيَها بأعمالها ويقرِّرها بفعلها، فهذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجُرها عمّا فيه هلاكُها، ولكن المعاند الذي لا تنفع فيه الآيات، لا يزال مستمرًا على غَيِّه وكفره وعناده»[1].

ثانيًا: الأدلة على سكرات الموت من السنة والأثر

ثبتت أحاديث عن الرسول ﷺ تدل على أن للموتِ سكراتٍ، ومن ذلك:

١- ما أخرجه البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه رَكْوَة[2]، أو عُلبة فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء، فيمسح بها وجهه، ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكراتٍ**»، ثم نصب يديه، فجعل يقول: «**في الرفيق الأعلى**»، حتى قبض ومالت يده[3].

٢- وعن أنس ﷺ، قال: لَمَّا ثَقُل النبيُّ ﷺ جعل يتغشَّاه، فقالت فاطمة:

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٨٣٣.

(٢) الرَّكوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء، والجمع ركاء، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ص٢٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، ح ٦٥١٠، وفي كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ح ٤٤٤٩.

واكربَ أباه، فقال لها: «ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم»، فلما مات قالت: يا أبتاه، أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه، مِنْ جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه. فلمَّا دُفــن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنسُ، أطابت نفوسُكم أن تحْثُوا على رسول الله ﷺ التراب؟[١]

٣- ما أخرجه البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (مات النبي ﷺ وإنه لبين حاقِنَتي وذاقِنَتي[٢]، فلا أكره شدةَ الموت لأحدٍ أبدًا بعد النبي ﷺ)[٣].

٤- ما رواه الترمذي بسنده عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (ما أغبِطُ أحدًا بهون موتٍ بعد الذي رأيت مِنْ شدة موت رسول الله ﷺ)[٤].

قال أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ): «اعلَمْ أنه لو لم يكن بين يدي العبدِ المسكين كرْبٌ ولا هولٌ ولا عذابٌ سوى سكرات الموت بمجرّدها، لَكانَ جديرًا بأن يتنغَّص عليه عيشُه، ويتكدَّرَ عليه سرورُه، ويفارقَه سهوُه وغفلتُه، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره، ويعظُم له استعداده، لا سيما وهو في كلِّ نفس بصدده...، واعلَمْ أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا مَنْ ذاقها، ومَنْ لم يذقْها،

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ح ٤٤٤٦..

(٢) الذَّاقنة: الذقن، وقيل: طرف الحُلقوم، وقيل: ما يناله الذَّقن من الصدر، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ص٣٢٨.

(٣) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٦٢.

(٤) رواه الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في التشديد عند الموت، ح ٩٧٩، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ١/ ٥٠٢، ح ٩٧٩.

فإنما يعرفها؛ إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزْع على شدة ما هم فيه.

فأما القياس: الذي يشهد له، فهو أنَّ كل عضو لا روحَ فيه، فلا يَحُسُّ بالألم، فإذا كان فيه الروح، فالمدرك للألم هو الروحُ، فمهما أصاب العضوَ جرحٌ أو حريقٌ سرى الأثر إلى الروح، فبقدْر ما يسري إلى الروح يتألَّم، يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء، فلا يصيب الروحَ إلا بعضُ الألم؛ فإن كان مِنَ الآلام ما يباشر نفسَ الروح ولا يلاقي غيره، فما أعظمَ ذلك الألم وما أشدَّه، والنَزع عبارة عن مؤلمٍ نَزل بنفس الروح، فاستغرق جميعَ أجزائه، حتى لم يبقَ جزءٌ من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حلَّ به الألم...، فألمُ النّزع يهجُم على نفس الروح، ويستغرق جميع أجزائه؛ فإنه المنْزوع المجذوب من كل عرق من العروق، وعَصَبٍ من الأعصاب، وجزءٍ من الأجزاء، ومَفَصِلٍ من المفاصل، ومِنْ أصل كل شعرة وبَشَرة مِنَ العِرق إلى القدم، ... فلا تَسَلْ عن بدن يُجذَب منه كلُّ عِرق من عروقه، ولو كان المجذوب عِرْقًا واحدًا، لكان ألمُه عظيمًا، فكيف والمجذوبُ نفسُ الروح المتألم، لا مِنْ عِرق واحدٍ، بل من جميع العروق، ثم يموت كلُّ عضو من أعضائه تدريجيًا، فتبرُد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، ولكلِّ عضو سكرةٌ بعدَ سكرة، وكُربة بعد كُربة؛ حتى يبلُغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها»[1].

أخرج ابن أبي الدنيا عن شداد بن أوس ﷺ، قال: «الموت أفظع هول في

(١) كتاب الموت: ص٦٥-٦٧ ونقله ابن الجوزي في: الثبات عند الممات ص٦١-٦٣.

الدنيا والآخرة على المؤمنين، والموتُ أشدُّ مِنْ نشر المناشير، وقرْض بالمقاريض، وغَلٍي في القدور، ولو أن الميت نُشر[1] فأخبر أهلَ الدنيا بألم الموت، ما انتفعوا بعيشٍ، ولا لذُّوا بنوم»[2].

وأخرج ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) عن عَوانة بن الحكم، قال: كان عمرو بن العاص يقول: عجبًا لمن نزل به الموت وعقلُه معه كيف لا يصِفُه، فلما نزل به قال له ابنه عبد الله: يا أبتِ، إنك كنت تقول: عجبًا لمن نزل به الموت وعقلُه معه كيف لا يصفه؟ فصِفْ لنا الموت قال: (يا بنيَّ، الموت أجَلُّ مِنْ أن يُوصَفَ، ولكن سأصف لك منه شيئًا، أجِدُني كأنَّ على عنقي جبالَ رضوى، وأجدني كأن في جوفي الشوكَ، وأجدني كأن نفسي تخرج من ثُقب إبرة)[3].

المطلب الثالث: سكرات الموت تحصل لكل المخلوقات:

كل المخلوقات تجد سكراتِ الموت، ويشهد لهذا عمومُ قولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله ﷺ «**إن للموت سكرات**»[4]، لكن تختلف المخلوقات في درجة إحساسها بالسَّكَرات[5].

---

(1) النشر: البعث والإحياء، انظر لسان العرب ٣/ ٦٣٥.

(2) انظر: كتاب الموت ص٦٩.

(3) طبقات ابن سعد ٤/ ٢٦٠، وانظر: سير أعلام النبلاء ٣/ ٧٥، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ٣٤٦.

(4) سبق تخريجه ص٢٤.

(5) انظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٥٠، ٥١

فالعبد المؤمن تخرج روحُه بسهولة ويُسْر، ودليلُ ذلك: ما ورد في حديث البراء بن عازب: أن الرسول ﷺ قال عن وفاة المؤمن: «**ثم يجيءُ مَلَكُ الموت عليه السلام حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة** [وفي رواية: المطمئنة] **اخرُجي إلى مغفرةٍ مِنَ الله ورضوان، قال: فتخرُج تسيل كما تسيل القطرة مِنَ السِّقاء، فيأخذها...**»[(١)].

أما الكافر فإن روحه تخرج بشدة وصعوبة يتعذب بها، لقوله ﷺ في حديثه عن وفاة الكافر [وفي رواية الفاجر]: «**ثمَّ يجيء ملَك الموت حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفسُ الخبيثة، اخرُجي إلى سَخَط مِنَ الله وغضبٍ. قال: فتفرق في جسده، فينتزعُها كما يُنتزعُ السَّفُّودُ**[(٢)] **الكثير الشُّعَب من الصوف المبلول، فتقطع معها العروقُ والعَصَب**»[(٣)].

هذا بالجملة، وإلا فإنه قد تشتدُّ السَّكرات على بعض الصالحين؛ لتكفير ذنوبهم، ولرفع درجاتهم، كما حصل للرسول ﷺ حيث عانى من شدة سَكَرات الموت، كما في صحيح البخاري في الحديث السابق ذكره[(٤)].

قال ابن حجر: «وفي الحديث [**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**]: أنَّ شدة

---

(١) الحديث رواه أحمد ٤/ ٢٨٧٦، و ٢٩٥ و ٢٩٦ وأبو داود، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، ح ٤٧٥٣.

(٢) السَّفُّود: حديدة ذات شعب معقفة، يُشوى بها اللحم، انظر: لسان العرب، ٢/ ١٥٤.

(٣) انظر التعليق رقم (١).

(٤) انظر التعليق رقم (٣) ص٢٤.

الموت لا تدلُّ على نقصٍ في المرتبة، بل هي للمؤمن؛ إما زيادةٌ في حسناته، وإما تكفيرٌ لسيئاته»[١].

وقد ترجم ابن ماجة (ت ٢٧٥هـ) في سُننه بعنوان: «باب ما جاء في المؤمن يُؤجَر في النَّزْع. وساق تحته قوله ﷺ: «**المؤمن يموت بعَرَق الجبين**»[٢]، كما قد جاء في حديث آخر قولُه ﷺ: «**الشهيدُ لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدُكم ألَمَ مَسِّ القرْصة**»[٣].

وهذا يدل على أن الأصلَ تخفيفُ نزْع روح المؤمن، إلا أنها قد تُشَدَّد على مَنْ أراد الله سبحانه وتعالى مِنَ المؤمنين؛ تكفيرًا لسيئاتهم، أو رفعًا لدرجاتهم؛ قال القرطبي في معرِض حديثه عن سكرات الموت: «قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فإذا كان هذا الأمرُ قد أصاب الأنبياءَ والمرسلين والأولياء، فما لنا عن ذكره مشغولين؟ وعن الاستعداد له متخلِّفين؟ قالوا: وما جرى على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين مِنْ شدائد الموت وسَكَراته، فله فائدتان:

إحداهما: أن يعرف الخلق مقدارَ ألم الموت، وأنه باطن، وقد يطَّلع الإنسان على بعض الموتى، فلا يرى عليه حركةً ولا قلقًا، ويرى سهولةَ خروج روحه،

---

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١١/ ٣٦٣.

(2) رواه ابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ما جاء في المؤمن يؤجر في النزع، ح ١٤٥٢، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٢٤٥، ح ١١٨٨.

(3) رواه ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، ح ٢٨٠٨ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ٩٦٠، وصحيح سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٠، ح ٢٢٦٠.

فيغلب على ظنه سهولةُ أمر الموت، ولا يعرف ما الميت فيه، فلما ذكر الأنبياء الصادقون في خبرِهم شدةَ ألمه، مع كرامتهم على الله تعالى، وتهوينه على بعضهم قَطَع الخلقُ بشدة الموت الذي يعانيه ويقاسيه الميتُ مطلقًا لإخبار الصادقين عنه، ما خلا الشهيدَ، قتيل الكفار.

الثانية: ربما خطر لبعض الناس أنَّ هؤلاء أحبابُ الله وأنبياؤه ورسلُه، فكيف يقاسون هذه الشدائدَ العظيمة؟ وهو سبحانه قادر أن يخفِّف عنهم أجمعين...، فالجواب: أن (**أشدّ الناس بلاءً في الدنيا الأنبياءُ، ثم الأمثل فالأمثل**) [1] كما قال نبيُّنا عليه السلام...، فأحبَّ الله أن يبتليَهم تكميلاً لفضائلهم لديه، ورفعةً لدرجاتهم عنده، وليس ذلك في حقِّهم نقصًا ولا عذابًا، بل هو كمالُ رفعةٍ، مع رضاهم بجميل ما يُجري الله عليهم، فأراد الحقُّ سبحانه أن يختم لهم بهذه الشدائد، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم، ليرفعَ منازلهم، ويعظمَ أجورَهم قبل موتهم، كما ابتلى إبراهيمَ بالنار، وموسى بالخوف والأسفار، وعيسى بالصَّحارى والقفار، ونبيَّنا محمدًا ﷺ بالفقر في الدنيا ومقاتلة الكفار، كل ذلك لرِفعةٍ في أحوالهم، وكمالٍ في درجاتهم.

ولا يُفهم من هذا أن الله شدَّد عليهم أكثرَ مما شدَّد على العُصاة المخلِّطين؛ فإن ذلك عقوبةً لهم، ومؤاخذةً على إجرامهم، فلا نسبةَ بينه وبين هذا»[2].

---

(١) طرف من حديث رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ح ٢٣٩٨ ورواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ح ٤٠٢٣، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٧١، ح ٣٢٤٩.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٤٨-٥٠.

فشدة السكرات تخفِّف من الذنوب، وكلُّ ما يصيب الإنسان؛ من مرض، أو شدة، أو همٍّ، أو غمٍّ، حتى الشوكة تصيبهُ، فإنها كفارةٌ لذنوبه. ثم إنْ صبرَ واحتسب كان له مع التكفير أجرُ ذلك الصبر الذي قابَل به هذه المصيبة التي لَحِقت به، ولا فرق في ذلك بين ما يكون عند الموت، وما يكون قبلَه، فالمصائب كفارات لذنوب المؤمن[١]، وقد أخبر الرسول ﷺ بأنه: «**ما مِنْ مسلم يصيبهُ أذىً مِنْ مرض فما سواه، إلا حطَّ الله به سيئاتِه كما تحطُّ الشجرةُ ورقها**»[٢]، وكذلك قوله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ الله به خيرًا يُصِبْ منه**»[٣] وقوله ﷺ: «**ما يصيبُ المؤمنَ مِنْ وَصَبٍ[٤] ولا نَصَبٍ[٥] ولا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ حتى الهمَّ يهمُّه، إلا كفَّر به من سيئاته**»[٦]، وفي رواية قال ﷺ: «**ما يصيب المسلمَ مِنْ نصَب، ولا وَصَبٍ، ولا همٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذى، ولا غمٍّ، حتى الشوكةَ يُشاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه**»[٧].

---

(١) انظر: فتاوى الشيخ محمد صالح العثيمين ١/ ٤٨-٥٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب المرض والطب، باب أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأول فالأول، ح ٥٦٤٨، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن ونحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها، ح ٢٥٧١.

(٣) رواه البخاري، كتاب المرض والطب، باب ما جاء في كفارة المرض، وقول الله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾، ح ٥٦٤٥.

(٤) الوصب: دوام المرض ولزومه، وقد يُطلق الوَصبُ على التعب وفتور البدن، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ص٩٧٤.

(٥) النصب: التعب، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ص ٩١٨، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ١٠/ ١٠٦

(٦) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن ونحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها، ح ٢٥٧٣.

(٧) رواه البخاري، كتاب المرض والطب، باب ما جاء في كفارة المرض، وقول الله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾، ح ٥٦٤٢.

المبحث الثاني

وصف حال توفي الملائكة الكفارَ

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن حال توفِّي الملائكةِ الكفارَ، وذلك بأن الملائكة يضربون وجوه الكفار وأدبارهم، ويُبشرونهم بعذاب الحريق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠، ٥١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفِّي الملائكة أرواحَ الكفار، لرأيت أمرًا عظيمًا هائلاً فظيعًا منكرًا؛ إذ يضربون وجوهَهم وأدبارهم، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق»[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥-٢٨]، أي كيف حال الكفار إذ جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجَتْها الملائكة وهم باسطو أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم، يقولون لهم: أخرِجُوا أنفسَكم[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٠٥.

(٢) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٧/ ١٨٢، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ١٨٢.

والخبر الوارد في سورة الأنفال نزل في وصف وفاة الكفار يومَ بدر، إلا أنه وصفٌ عامٌّ لوفاة الكفار في كل وقت، قال ابن كثير في تفسيره لآيتي الأنفال السابقة: «وهذا السياق وإن كان سببُه وقعة بدر، ولكنه عامٌّ في حقِّ كل كافر؛ ولهذا لم يخصِّصْه الله تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال [محمد] مثلها، وتقدم في سورة الأنعام قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي باسطو أيديهم بالضَّرب فيهم بأمرِ ربِّهم؛ إذ استصعَبتْ أنفسُهم وامتنعت مِنَ الخروج مِنَ الأجساد أن تخرجَ قهرًا، وذلك إذا بشَّروهم بالعذاب والغضب من الله، كما في حديث البراء أن ملَك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكَرة يقول: اخرُجي أيتها النفسُ الخبيثة إلى سَموم وحَميم وظِلٍّ من يحموم، فتفرَّقُ في بدنه، فيستخرجونها مِنْ جسده كما يخرج السَّفُّود من الصوف المبلول، فتخرج معها العُروق والعَصَبُ؛ ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ذوقوا عذاب الحريق»[1].

ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧]، ففي هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى أن الملائكة إذا توفت

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٠٥.

المشركين تُفزعهم عند الموت وقبْض أرواحهم، ويقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الدنيا وتدعونهم، وتعبدونهم من دون الله، ادعُوهم يخلِّصونكم مما أنتم فيه الآن من الفزع والموت الواقع بكم، قالوا: ذهبوا عنا، فلا نرجوا نفعَهم، ولا ضرَّهم، وأقرُّوا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٨،٢٩].

فالله سبحانه وتعالى يُخبر في هذه الآية أن المشركين الظالمين لأنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة يُظهرون السمع والطاعة قائلين: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ فقال الله مكذِّبًا لهم: ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي بئس المقيل والمقام من دار هوان لمن كان متكبرًا عن آيات الله واتِّباع رُسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها مِنْ حرِّها وسَمومها؛ فإذا كان يوم القيامة سُلكت أرواحهم في أجسادهم وخُلِّدت في نار جهنم[2].

فقوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ﴾؛ أي: الاستسلام والخضوع، والمعنى: أنهم

---

(١) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٨/ ١٢٧، وتفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٤٨.

أظهروا الطاعة والانقياد، وتركوا ما كانوا عليه مِنَ الشِّقاق، فالمشركون في الدنيا يشاقُّون الرُّسُل، ويخالفونهم، ويعادونهم؛ فإذا عاينوا الحقيقةَ ألقَوا السَّلَم، وخضعوا وانقادوا، وذلك عندما يعاينون الموتَ أو يومَ القيامة، ولكن لا ينفعهم ذلك؛ لأن الانقياد عند معاينة الموت لا ينفع[1].

وقد توعَّد الله تعالى في كتابه العزيز مَنْ تركوا الهجرة -مع قدرتهم عليها حتى ماتوا- بأن الملائكةَ الذين يقبضون أرواحَهم يوبِّخُونهم توبيخًا عظيمًا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «إن الذين تقبض أرواحَهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم، يعني: مكسبي أنفسِهم غضبَ الله وسخطه...، قالت الملائكة لهم: ﴿ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ في أي شيء كنتم في دينكم، ﴿ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني: قال الذين توفَّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم: كنا مستضعفين في الأرض، يستضعفُنا أهلُ الشرك بالله، في أرضنا وبلادنا... معذرةٌ ضعيفةٌ وحُجةٌ واهية، ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ يقول: فتخرجُوا مِنْ أرضكم ودورِكم، وتفارقوا مَنْ يمنعكم بها مِنَ الإيمان بالله واتِّباع رسوله ﷺ..، وذُكر أن هاتين

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٢٥٩، ٢٦٠.

الآيتين والتي بعدها نزلت في أقوام مِنْ أهل مكة كانوا قد أسلموا وآمنوا بالله ورسوله، وتخلَّفوا عن الهجرة مع رسول الله ﷺ حين هاجر، وعُرض بعضُهم على الفتنة فافتتن، وشهد مع المشركين حربَ المسلمين، فأبى الله قَبول معذرتِهم، التي اعتذروها بها، التي بيَّنها في قوله، خبرًا عنهم:﴿ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ »[1].

وقال السعدي: «قوله: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ فيه ذكر بيان السبب الموجب، فقد يترتَّب عليه مقتضاه، مع اجتماع شروطه، وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع، وفي الآية دليلٌ على أن الهجرة مِنْ أكبر الواجبات، وتركَها من المحرَّمات، بل من أكبر الكبائر»[2].

---

(١) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٥/ ١٤٧، ١٤٨، وانظر معالم التنزيل ١/ ٤٦٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص١٥٩، ١٦٠.

المبحث الثالث

حضور الملائكة مع ملك الموت وتبشيرهم المحتضر

المطلب الأول: مع ملَك الموت ملائكة يعاونونه في قبض الروح بأمر الله تعالى

إذا حان أجلُ العبد، وأراد الله تعالى قبضَ روحه، أرسل إليه ملَكَ الموت ومعه ملائكةٌ يعاونونه على قبْض روح ذلك العبد، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]، فقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي: احتضر وحان أجلُه، ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي: ملائكة موكَّلون بذلك، روى ابن كثير في «تفسيره» عن ابن عباس وغيرِ واحدٍ قولَهم: إن لملَك الموت أعوانًا من الملائكة يُخرجون الروح من الجسد، فيقبضها ملَك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم[1].

يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن ربكم يحفظُكم... إلى أن يحضركم الموتُ، وينْزلَ بكم أمرُ الله، وإذا جاء ذلك أحدَكم توفَّاه أملاكنا الموكَّلون بقبض الأرواح ورُسُلُنا المرسَلون به، وهم لا يفرِّطون في ذلك، فيضيعونه. فإن قال قائل: أوَلَيْس الذي يقبض الأرواح ملَك الموت، فكيف قيل: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ والرسل جملة، وهو واحد، أوَلَيْس قد قال: ﴿ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١]، قيل: جائز أن يكون الله تعالى أعان ملَك الموت بأعوان من عنده، فيتولون ذلك بأمر ملَك الموت، فيكون التوفِّي مضافًا، وإن كان ذلك من فعل أعوان ملَك الموت إلى ملَك الموت؛ إذ كان فعلُهم ما فعلوا من ذلك بأمره، كما يُضاف قَتْلُ من قَتَلَ أعوانُ السلطان، وجلْد من جلدوه بأمر السلطان إلى السلطان، وإن لم يكن السلطان باشَرَ ذلك بنفسه، ولا وَلِيَهُ بيده»[2].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣١.

(٢) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٧/ ١٣٩.

فالمتأمل في نصوص القرآن الكريم يُدرك أن الله سبحانه وتعالى أسند التوفِّي للملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل: ٢٨] ،وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام: ٦١]، وغيرها من الآيات، وأسنده في آية أخرى لملَك الموت، قال تعالى: ﴿ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١]، وأسنده سبحانه في آية أخرى إليه جلَّ وعلا، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، ولا معارضةَ بين الآيات المذكورة؛ فإسناد التوفِّي إليه سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يموت أحدٌ إلا بمشيئته، وإذنه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وإسناده لملَك الموت؛ لأنه هو المأمورُ بقبض الأرواح، وإسناده للملائكة؛ لأن لملَك الموت أعوانًا من الملائكة ينْزِعون الروح من الجسد إلى الحلقوم؛ فيأخذها ملَك الموت[1].

المطلب الثاني: بشارة الملائكة المؤمن برضوان الله وفرحه بذلك

يشهد لحضور الملائكة وتبشيرهم قولُه ﷺ: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكةٌ مِنَ السماء بيضُ الوجوه، كأن وجوههم الشمسُ، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحَنوط[2] من حنوط الجنة، حتى**

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٢٦٧، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص٢٣٦.

(٢) الحَنوط: هو ما يُخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ص٢٣٧.

يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملَك الموت عليه السلام حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة [وفي رواية: المطمئنة] اخرُجي إلى مغفرةٍ مِنَ الله ورضوان...، وإن العبد الكافر [وفي رواية: الفاجر] إذا كان في انقطاعٍ مِنَ الآخرة وإقبال من الدنيا نزل إليه مِنَ السماء ملائكةٌ غِلاظ شِدادٌ، سُودُ الوجوه معهم المُسُوح[1] من النار، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيءُ ملَك الموت حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سَخط مِنَ الله وغضب»[2].

فالملائكة تبشّر المؤمن بمغفرة الله ورضوانه، وتبشِّر الكافر والفاجر بسخط الله وغضبه، وقد جاء صريحًا في كتاب الله تعالى أن الملائكة تتنَّزل على المؤمنين بعدم الخوف والحزن، والبشرى بالجنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، أي: إن الذين أخلصوا العملَ لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شَرَع اللهُ لهم تتنزَّل عليهم الملائكة عند الموت والاحتضار قائلين لهم: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ ﴾ مما تُقدمون عليه من عمل الآخرة ﴿ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ على ما خلَّفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دَيْن؛ فإنا نخلُفُكم فيه ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فيبشرونهم

---

(١) المسوح: جمع مِسْح، وهو الكساء مِنَ الشعر، انظر: لسان العرب ٣/ ٤٨١.

(٢) سبق تخريجه ص٢٨.

بذهاب الشر وحصول الخير، ذكر هذا ابنُ كثير، ثم روى عن زيد بن أسلم قولَه بأن البُشرى تكون عند الموت، وفي القبر، وحين البعث، ثم علّق ابنُ كثير على رأي: زيد بقوله: «وهذا القولُ يجمع الأقوالَ كلَّها، وهو حسن جدًا، وهو الواقع»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾: «أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءَكم: أي: قُرناءَكم في الحياة الدنيا نسدِّدكم ونوفِّقكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نُؤنس منكم الوَحشة في القبور، وعند النَّفخة في الصور، ونؤمنكم يومَ البعث والنشور، ونُجاوز بكم الصراط المستقيم، ونُوصِلكم إلى جناتِ النعيم»[(٢)].

وذكر الطبري في «تفسيره» أن تنزُّلَ الملائكة عليهم، في الآية، معناه: أن الملائكة تتهبَّط عليهم عند نزول الموت بهم قائلةً لهم: لا تخافوا ما تقدمون عليه من بعد مماتكم، ولا تحزنوا على ما تُخلّفونه وراءكم[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد ذكروا أن هذا التنزُّل عند الموت»[(٤)].

وقال الله سبحانه وتعالى في بشارة المؤمنين: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٠٠، ١٠١.

(٢) المصدر السابق ص١٠١.

(٣) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٢٤/ ٧٤.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٤/ ٢٦٨.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

فالله جل وعلا يخبر في هذه الآيات عن أوليائه بأنه لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه أمامَهم مِنَ الأهوال والمخاوف؛ ولا هم يحزنون على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يُسلفوا إلا الأعمال الصالحة؛ لذلك كانت لهم البشارةُ في الدنيا بالثناء الحسن، والمودَّة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، ولُطف الله بهم، وتيسيرهم لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفُهم عن مساوئها، ولهم البشارة في الآخرة، وأولها البشارةُ عند قبض أرواحهم، وفي القبر، ثم دخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم[1].

قال الطبري: «إن الله تعالى ذِكْرُه أخبره أن لأوليائه المتقين البُشرى في الحياة الدنيا، ومِنَ البشارة في الحياة الدنيا: الرؤيا الصالحةُ، يراها المسلم أو تُرى له، ومنها: بشرى الملائكة إياه عند خروج نفْسه برحمة الله...، ومنها: بشرى الله إياه وعدَه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ مِنَ الثواب الجزيل...، وكل هذه المعاني مِنْ بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بَشَّره بها، ولم يخصِّص الله من ذلك معنى دون معنى، فذلك مما عمَّه جل ثناؤه أنَّ لهم البشرى في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة، فالجنة. وأما قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ فإن معناه: أن الله لا خُلْفَ لوعده، ولا تغييرَ لقوله عما قال، ولكنه يمضي لخلْقه مواعيدهَ، وينجِزُها لهم»[2].

وقال ابن تيمية: «وقد فَسّر النبيُّ ﷺ البشرى في الدنيا بنوعين:

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٣٢٤، وتفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٠٥.

(٢) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ١١/ ٩٦.

أحدهما: ثناء المثنين عليه.

الثاني: الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو تُرى له، فقيل: يا رسول الله الرجل يعمل العملَ لنفسه، فيحمَدُه الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجلُ بشرى المؤمن**»(١)، وقال البراء بن عازب: سُئل النبي ﷺ عن قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فقال: «**هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو تُرى له**»(٢)(٣).

وأخبر الله سبحانه وتعالى عن حال المؤمنين عند الاحتضار أنهم طيِّبون؛ أي: مخلِصون مِنَ الشِّرك والدَّنَس، وكل سوء، وأن الملائكة تسلِّم عليهم، وتبشِّرهم بالجنة، حيث قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

قال الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ): «ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن المتقين الذين كانوا يمتثلون أوامرَ ربهم، ويجتنبون نواهيَه، تتوفاهم الملائكة؛ أي: يقبضون أرواحهم في حال كونهم طيبين؛ أي: طاهرين من الشرك والمعاصي على أصحِّ التفسيرات، ويبشِّرونهم بالجنة، ويسلِّمون عليهم...، والبشارة عند الموت وعند الجنة مِنْ باب واحد؛ لأنها بشارة بالخير بعد الانتقال إلى الآخرة، ويُفهم من صفات هؤلاء الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، ويقولون لهم سلام

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب إذا أثني على الصالح فهي بُشرى ولا تضره، ح ٢٦٤٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٤٤٥-٤٥٢، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٣٩٢، ح ١٧٨٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ١/ ٨، وانظر ١٤/ ٢٠٠.

عليكم ادخلوا الجنة: أنَّ الذين لم يتصفوا بالتقوى لم تتوفَّهم الملائكة على تلك الحال الكريمة، ولم تسلِّم عليهم، ولم تبشِّرْهم»[١].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ففي هذه الآية يخبر الله سبحانه وتعالى أنه يثبِّت المؤمنين بالقول الثابت في الحياة الدنيا عند ورود الشُّبهات والشهوات؛ بالهداية إلى اليقين، وتقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادِها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على التوحيد، وفي القبر عند سؤال الملَكين للجواب الصحيح، ويُضِلُّ الله الظالمين عن الصواب في الدنيا والآخرة.

قال البغوي (ت ٥١٦هـ): «قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾: كلمة التوحيد، وهي قول: لا إله إلا الله، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني قبل الموت، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعني في القبر، هذا قول أكثر المفسرين، وقيل: في الحياة الدنيا عند السؤال في القبر، وفي الآخرة عند البعث، والأول أصح»[٢].

وروى النسائي (ت ٣٠٣هـ) بسنده عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا حُضِر المؤمنُ أتتْه ملائكةُ الرحمة بحريرةٍ بيضاء، فيقولون: اخرُجي راضيةً مرضيًا عنك، إلى رَوْح الله وريْحان، وربٍّ غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح**

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٢٦٦.

(٢) انظر: معالم التنزيل ٣/ ٣٣.

المسك حتى إنه ليناولُه بعضُهم بعضًا، حتى يأتون به بابَ السماء، فيقولون: ما أطيبَ هذه الريح التي جاءتكم مِنَ الأرض! فيأتون به أرواحَ المؤمنين، فلهم أشدُّ فرحًا به مِنْ أحدكم بغائبه يقدَمُ عليه، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه، فإنه كان في غمِّ الدنيا، فإذا قال: أمَا أتاكم؟ قالوا: ذُهب به إلى أمِّهِ الهاوية. وإن الكافرَ إذا احتضر أتتْه ملائكةُ العذاب بمِسْحٍ، فيقولون: اخرُجي ساخطةً مسخوطًا عليك إلى عذاب الله عز وجل؛ فتخرج كأنتنِ ريحٍ جيفةٍ، حتى يأتون به بابَ الأرض، فيقولون: ما أنتنَ هذه الريح! حتى يأتون به أرواحَ الكفار»[1].

وفي سنن ابن ماجة (ت ٢٧٥هـ) عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «الميت تحضُره الملائكة، فإذا كان الرجلُ صالحًا، قالوا: اخرُجي أيتها النفسُ الطيبة، كانت في الجسدِ الطيبِ، اخرُجي حميدةً، وأبشِري برَوْح وريحانٍ وربٍّ غيرِ غضبان، فلا يزال يُقال لها حتى تخرُجَ، ثم يُعرَجُ بها إلى السماء، فيفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيّب، ادخُلي حميدةً، وأبشِري برَوُح وريْحان وربٍّ غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهيَ بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرُجي أيتها النفسُ الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمةً، وأبشِري بحميمٍ وغسَّاق، وآخرَ مِنْ شكله أزواج، فلا يزال يقال لها

---

(١) الحديث رواه النسائي، كتاب الجنائز، باب ما يُلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، ح ١٨٣٢، وابن حبان ٧٣٣، والحاكم ١/ ٣٥٢، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ١٣٠٩، وصحيح سنن النسائي ٢/ ٦، ح ١٨٣٢.

ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فلا يُفتح لها، فيقال: مَنْ هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجِعي ذميمةً، فإنها لا تُفتح لكِ أبوابُ السماء، فيرسل لها مِنَ السماء، ثم تصير إلى القبر»[1].

والمؤمن إذا بُشِّر حين الاحتضار برحمة الله ورضوانه سُرَّ بذلك، وفرح، فأحبَّ لقاء الله، وأحبَّ اللهُ لقاءه. أما الكافرُ، فإنه إذا بُشِّر بغضب الله وسخطه تألَّم وحزن، فكره لقاءَ الله، وكره اللهُ لقاءه؛ فعن عُبادة بن الصامت ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاءَ الله كره اللهُ لقاءه. قالت عائشة -أو بعضُ أزواجه-: إنا لنكره الموتَ، قال: ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيءٌ أحبّ إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاءَ الله وأحبَّ اللهُ لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاءَ الله، وكره الله لقاءه**»[2].

فالعبد إذا أحبَّ لقاء الله سعى إلى ذلك بالإخلاص له بالعبادة، والمتابعة لما جاء به رسولُ الله ﷺ، فأحبَّ اللهُ لقاءه، وبُشِّر برحمة الله والجنة حين احتضاره، فيفرح ويحبُّ لقاء الله، ويحب الله لقاءه؛ ففي هذا الحديث صفةُ حال الطائفتين: المؤمنة والكافرة، في أنفسهم عند ربهم، فمَنْ أحبَّ لقاء الله، فهو الذي أحبَّ الله لقاءه، وكذا الكراهة، ولهذا ذكر بعضُ أهل العلم أن المحتضر إذا ظهرت

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ح ٤٢٦٢، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢/ ٤٢٠، ح ٣٤٣٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ح ٦٥٠٧.

عليه علامات السرور كان ذلك دليلاً على أنه بُشِّر بالخير، وإذا ظهرت عليه علامات الحزن والضِّيق كان دليلاً على أنه بُشِّر بالعذاب[١].

وقد أخذ بعض العلماء من هذا الحديث: «أن محبة لقاء الله لا تدخل في النهي عن تمنِّي الموت؛ لأنها ممكنة مع عدم تمنِّي الموت؛ كأنْ تكون المحبةُ حاصلةً، لا يفترق حاله فيها بحصول الموت ولا بتأخيره، وأن النهي عن تمنِّي الموت محمولٌ على حالة الحياة المستمرة، وأما عند الاحتضار والمعاينة، فلا تدخُل تحت النهي، بل هي مستحبَّةٌ»[٢].

وقد جاء في رواية أن عائشة رضي الله عنها قالت في حديث (**من أحب لقاء الله...**): «قد قاله رسولُ الله ﷺ، وليس بالذي تذهب إليه، ولكن إذا طمِحَ البصرَ، وحشرج الصدر، واقشعرَّ الجلد، فعند ذلك مَنْ أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن ينْزل به الموت، ويعاين ما يعاينُ، فودَّ لو خرجت -يعني نفسه- والله يحبُّ لقاءه**». فإذا كان عدوًا لله نزل به الموت وعاين ما عاين؛ فإنه لا يحب أن تخرُج روحُه أبدًا، والله يبغض لقاءه»[٤].

---

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ١١/ ٣٥٨

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٣) رواه النسائي، كتاب الجنائز، باب فيمن أحب لقاء الله، ح ١٨٣٣، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي ٢/ ١٠، ح ١٨٣٣.

(٤) رواه البزار في مسنده ص ٩٢، وقال عنه السيوطي: (سنده صحيح). انظر الفوز العظيم في لقاء الكريم للسيوطي ص ٤٤، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٦/ ٢٦٢، ح ٢٦٢٨.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: كان النبي ﷺ يقول: «**إذا وُضعت الجنازة، فاحتملها الرجال على أعناقهم؛ فإنْ كانت صالحةً قالت: قدِّموني، وإن كانت غيرَ صالحةٍ قالت لأهلها: يا ويلها، أين تذهبون بها؟ يَسمعُ صوتَها كلُّ شيء إلا الإنسانَ، ولو سمع الإنسان لصَعِقَ**»(١).

وفي ذلك زيادة في بشرى المؤمن، وبؤس الكافر كما ذكره ابن المنيِّر، ونقله عنه ابن حجر(٢).

المطلب الثالث: بشارة الملائكة الكافرَ بالعذاب

جاء صريحًا في كتـــاب الله تعالى أن الملائكة تبشِّر الكافر بالعذاب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

أي: إن الملائكة يبسُطون أيديَهم بالضرب والعذاب للكفار حتى تُخرِجَ أنفسَهم من أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾؛ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشَّرته الملائكة بالعذاب والنَّكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرَّق روحُه في جسده، وتعصى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول الميت وهو على الجنازة: قدموني، ح ١٣١٦.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣/ ١٨٥.

وتأبي الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحُهم مِنْ أجسادهم، قائلين لهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: اليوم تُهانون غايةَ الإهانة بسبب تكذيبكم على الله واستكباركم على اتِّباع آياته والانقياد لرسله[١].

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: «وهذا خبر مِنَ الله جل ثناؤه، عما تقول رسل الله التي تقبض أرواح هؤلاء الكفار لها، يُخبر عنها أنها تقول لأجسامها ولأصحابها: أخرِجوا أنفسكم إلى سخط الله ولعنته؛ فإنكم اليوم تُثابون على كفركم بالله، وقِيلِكم على الله الباطلَ، وزعمِكم أن الله أوحى إليكم ولم يُوحِ إليكم شيئًا، وإنذارِكم أن يكون الله أنزل على بشرٍ شيئًا، واستكبارِكم عن الخضوع لأمر الله وأمرِ رسوله، والانقياد لطاعته، عذابَ الهون، وهو عذاب جهنم الذي يُهينهم، فيذلُّهم حتى يعرفوا صَغارَ أنفسهم وذِلَّتها»[٢].

ويقول ابن القيم: «فقول الملائكة: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ المراد به: عذاب البرزخ، الذي أولُه يوم القبض والموت»[٣].

وأخبر سبحانه وتعالى عن حالهم حين الاحتضار، في سورة أخرى، بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٤٩.

(٢) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٧/ ١٨٣.

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة ١/ ٧٢.

لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال: ٥٠، ٥١] فالله جل وعلا يخاطب نبينا محمدًا ﷺ قائلاً له: «ولو تُعاينُ يا محمدُ حين يتوفَّى الملائكةُ أرواحَ الكفار فتنْزِعها من أجسادهم، تضرب الوجوه منهم والأستاه، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار التي تحرِقكم يومَ وُرودِكم جهنمَ..، ذوقوا عذاب الله الذي يَحرِقُكم، هذا العذاب لكم بما قدَّمت أيديكم؛ أي: بما كسبت أيديكم مِنَ الآثام والأوزار، واجترحتم مِنْ معاصي الله أيامَ حياتكم، فذوقوا اليوم العذاب، وفي معادكم عذابَ الحريق»[(١)].

يقول ابن القيم: «فهذه الإذاقة هي في البرزخ، وأولها حين الوفاة؛ فإنه معطوفٌ على قوله: ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كنظائره، وكلاهما واقعٌ وقتَ الوفاة»[(٢)].

والأدلة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ على بشارة الملائكة الكفار بالعذاب، وحُزنهم بذلك كثيرةٌ، سبق ذِكرُ كثيرٍ منها في المبحث السابق[(٣)].

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ١٠/ ١٦، ١٧.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٧٢.

(٣) وتركت ذكرها هنا خشية التكرار، لأن كثيرًا من الأحاديث فيه بشارة المؤمن والكافر، فذكرتها في مكان واحد؛ بعدًا عن تجزئتها.

المبحث الرابع

انقطاع التوبة بحضور الموت

أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن الذين يعملون السيئات، ثم يتوبون، فإنه تعالى يقبل توبتَهم؛ حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧] وغيرها مِنَ الآيات الكثيرة، ويقول ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «**لو أخطأتم حتى تبلُغَ خطاياكم السماءَ، ثم تبتُم، لتاب عليكم**»(١)، وعن أبي عبيدة بن عبد الله، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**التائبُ مِنَ الذنب كمن لا ذنبَ له**»(٢)، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ بني آدم خطاءٌ، وخيرُ الخطائين التوابون**»(٣)، وغيرها مِنَ الأحاديث الشريفة. فالنصوص الشرعية التي تحثُّ على التوبة كثيرةٌ جدًا، إلا أنها غيرُ مقبولةٍ عند الله تعالى إلا حين تتوفر شروطُها التي ذكرها العلماء استقراءً مِنْ نصوص كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. ومن تلك الشروط:

١- أن تكون التوبةُ خالصةً لوجه الله تعالى، فلا يُرادُ بها الدنيا أو مدحُ الناس وثناؤهم.

٢- الإقلاع عن المعصية.

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ح ٤٢٤٨، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٧، ح ٣٤٢٦، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ٩٠٣ و ١٩٥١.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ح ٤٢٥٠، وقال عنه الألباني: (حديث حسن). انظر صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٨، ح ٣٤٢٧.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ح ٤٢٥١، وقال عنه الألباني: (حديث حسن) في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٨، ح ٣٤٢٨.

٣- الندم على فعلها.

٤- العزم على عدم العودة إليها.

٥- إرجاع الحقوق إلى أصحابها، إن كانت المعصيةُ حقوقًا للآخرين.

٦- أن تكون قبل طلوع الشمس مِن مغربِها، وقبلَ حضور الموت[١].

والذي يعنينا من هذه الشروط في هذا المبحث هو أن التوبةَ لا بد أن تكون قبل حضور الموت[٢]؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٧-١٨].

يقول الطبري: «ما التوبة على الله لأحدٍ مِنْ خلقه إلا للذين يعملون السوء من المؤمنين بجَهالةٍ، ثم يتوبون مِنْ قريب، يقول: ما الله براجعٍ لأحد من خلقه إلى ما يحبُّه مِنَ العفو عنه، والصفح عن ذنوبه التي سلَفت منه، إلا للذين يأتون ما يأتونه مِنْ ذنوبهم جهالةً منهم، وهم بربهم مؤمنون، ثم يراجعون طاعةَ الله، ويتوبون منه إلى ما أمره الله به من الندم عليه والاستغفار، وترك العودة إلى مثله قبل نزول الموت بهم، وذلك هو القريب الذي ذكره الله تعالى ذِكْرُه، فقال: ﴿ ثُمَّ

---

(١) انظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٨٥.

(٢) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١١/ ٤٨٧.

يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، تأوليه: يتوبون قبل مماتهم في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تبارك وتعالى، ونهيه، وقبل أن يُغلَبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكُرَب الحشرجة وغمِّ الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله ونهيه، ولا يعقلوا التوبة؛ لأن التوبة لا تكون توبةً إلا مِمَّن ندم على ما سلف، وعزم فيه على ترْك المعاودة، وهو يعقل الندمَ، ويختار ترْك المعاودة، وأما إذا كان بكُرَبِ الموت مشغولاً، وبغمِّ الحشرجة مغمورًا، فلا إخاله إلا عن الندم على ذنوبه مغلوبًا؛ ولذلك قال مَنْ قال: إن التوبة مقبولة ما لم يغَرْغِر العبدُ بنفسه؛ إن كان المرء في تلك الحال يعقِل عقلَ الصحيح، ويفهم فَهْم العاقل الأديب، فأحدثَ إنابةً من ذُنوبه، ورجْعةٍ مِنْ شروده عن ربه إلى طاعته، كان -إن شاء الله- ممن دخل في وَعْدِ الله الذي وَعَدَ التائبين إليه مِنْ إجرامهم من قريب»[1].

فهذه الآية تدل على قَبول الله تعالى للتوبة قبل حضور الموت، أما إذا حضر موتُه وغرغرت روحُه، فليس توبتُه معتبرَةً حينئذ ولا مقبولةً، قال ابن كثير في تفسيره للآيتين السابقتين: «يقول سبحانه وتعالى: إنما يقبلُ الله التوبةَ ممن عمل السوء بجهالة، ثم يتوب ولو بعد معاينة المَلَك يقبض روحه قبل الغرغرة، فقد دلَّت الأحاديث على أن مَنْ تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة، وأما متى وقع الإياس مِنَ الحياة، وعايَن المَلَك، وخرجت الروح مِنَ الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغتِ الحُلقومَ، وغرغرت النفس صاعدةً من الغلاصم[2]، فلا توبة

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٤/ ٢٠٢، ٢٠٥ وانظر ص٢٠٦.

(٢) الغلاصم: جمع غلصمة، وهي رأس الحلقوم، انظر لسان العرب ٢/ ١٠٠٥.

مقبولة حينئذ، ولاتَ حين مناص»[(١)].

وهذا مثل قوله تعالى عن فرعون: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

ففرعون كفر بالله تعالى، وكذّب رسولَه عليه الصلاة والسلام، وأساء إلى نفسه أيامَ حياته وفي صحَّته بتماديه في طغيانه ومعصية ربّه، فلما حلَّ به سخط الله، ونزل عليه عقابه، فزع إليه مستجيرًا مِنْ عذابه الواقع به، وناداه وقد عَلَتْه أمواجُ البحر، وغشيَتْه كُرَب الموت قائلاً: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ له، المنقادين بالذِّلَّة والعبودية، فقال سبحانه وتعالى معرِّفًا فرعونَ قُبحَ صنيعِه في حياته: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ الآن تُقرُّ بالعبودية، وتستسلم له بالذِّلة وتُخلصُ له الألوهية، وقد عصيتَه قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من الصادِّين عن سبيله، فهلا وأنت في مَهَلٍ وبابُ التوبة لك منفتح أقرَرْتَ بما أنت به الآن مقرٌّ[(٢)].

قال السعدي: «حتى إذا أدرك فرعونُ الغرق، وجزم بهلاكه ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وهو الله الحق، الذي لا إله إلا هو ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي: المنقادين لدين الله، ولِمَا جاء به موسى، قال الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٣٩، ٤٤٠.

(٢) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ١١/ ١١٣.

تعالى مبينًا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غيرُ نافع له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمن، وتقِرُّ برسول الله، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾؛ أي: بارزت بالمعاصي والكفر والتكذيب، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فلا ينفعُك الإيمانُ كما جرت عادةُ الله أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعُهم إيمانهم؛ لأن إيمانَهم صارَ إيمانًا مشاهدًا كإيمان مَنْ وردَ القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب»[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «بل هذه التوبة لا تُمنع إلا إذا عاين أمرَ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ الآية... وكل مَنْ تاب قبل الموت، فقد تاب مِنْ قريب، وأما مَنْ تاب عند معاينة الموت، فهذا كفرعونَ الذي قال: أنا الله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. قال الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهذا استفهامُ إنكارٍ بيَّن به أن هذه التوبة ليست هي التوبةَ المقبولةَ المأمور بها.. ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٣-٨٥] الآية، بيَّن أن التوبة بعد رؤية البأس لا تنفع، وأن هذه سنة الله التي قد خلت في عباده؛ كفرعون وغيره»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ١٨/ ١٩٠، ١٩١.

وقَبول التوبة قبل حضور الموت؛ لأن الرجاء باقٍ، ويصح الندم والعزم على ترك الفعل، قال القرطبي: «قال علماؤنا رحمهم الله وإنما صحَّت منه التوبةُ في هذا الوقت؛ لأن الرجاء باقٍ ويُصبح الندمُ والعزمُ على ترك الفعل، وقيل: المعنى. يتوبون على قُرب عهدٍ مِنَ الذنب مِنْ غير إصرار، والمبادرةُ في الصحة أفضلُ وأحْقُ لأمَلِه في العمل الصالح والبُعد كلَّ البعد عن الموت، وأما ما كان قبل الموت، فهو قريب»[(١)].

وقد أخبر الله تعالى عن الأمم المكذِّبة بالرسل في قديم الدهر بأنهم لَمَّا رأوا وقوعَ عذاب الله بهم وحّدوا الله عز وجل، وكفروا بالطاغوت، فلم يقبل الله منهم توبتَهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤،٨٥]، فهذا حكم الله في جميع مَنْ تاب عند معاينة العذاب أنه لا يُقبل، وهذه سنةُ الله وعادتُه أنَّ المكذبين حين ينزل بهم بأسُ الله وعقابه إذا آمنوا كان إيمانُهم غيرَ صحيح ولا مقبول؛ لأنه إيمان ضَرورة قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان المقبول المنجي هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيمانًا بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب[(٢)].

يقول الطبري: «لم يكُ ينفعُهم تصديقُهم في الدينا بتوحيد الله عند معاينة

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٨٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٩١، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٦٩٠.

عقابه قد نزل، وعذابه قد حلَّ؛ لأنهم صدَّقوا حين لا ينفع التصديق مصدقًا؛ إذ كان قد مضى حكم الله في السابق مِنْ علمه أن مَنْ تاب بعد نزول العذاب مِنَ الله على تكذيبه، لم تنفعه توبتُه»[١].

ويشهد لهذا الشرط المهم من شروط قبول التوبة: ما ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إن الله عز وجل ليقبَلُ توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِرْ**»[٢]؛ أي: فإذا غرغَرَ وبلغت الروحُ الحنجرةَ، وعاينَ الملَك، فلا توبةَ حينئذ[٣].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ [آل عمران: ٩٠]، قال بعض العلماء: بأن المراد: إذا أخَّروا التوبة إلى حضور الموت، فتابوا حينئذ، فلن تُقبل توبتُهم، فيكون مثل قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾، وتقرر في الأصول حملُ المطلق على المقيَّد، ولا سيما إذا اتَّحد الحكم والسبب كما هنا[٤].

وروى الطبري (ت ٣١٠هـ) بسنده عن الحسن البصري (ت ١١٠هـ) قوله في هذه الآية: هم اليهود والنصارى، لن تُقبل توبتُهم عند الموت[٥].

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٢٤/ ٥٨.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ح ٤٢٥٣، وقال الألباني عنه: (حسن) انظر: صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٨، ح ٣٤٣٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٩١.

(٤) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/ ٣٤٣.

(٥) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٣/ ٢٤٣.

وقال ابن تيمية: «قال الأكثرون: لن تقبل توبتُهم حين يحضرهم الموت، قلت: وذلك لأن التائب راجعٌ عن الكفر، ومن لم يتب، فإنه مستمر يزداد كفرًا بعد كفر، فقوله: ﴿ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ ﴾ بمنْزلة قول القائل: ثم أصرُّوا على الكفر، واستمروا على الكفر، وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم زاد كفرهم ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت؛ لأن من تاب قبل حضور الموت، فقد تاب من قريب، ورجع عن كفره، فلم يزدد، بل نقص، بخلاف المصرِّ إلى حين المعاينة، فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلاً عن هدمه»[١].

أما ما ثبت «أن أبا طالب لَـمَّا حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ - وعنده أبو جهل- فقال: **أيْ عمّ، قل: لا إله إلا الله كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله**»[٢] الحديث، فقد قال ابن حجر بأنه ﷺ لَقَّن عمَّه الشهادة قبل أن يدخل في الغرغرة، وقول الرسول ﷺ «**أُحاجُّ لك بها عند الله**» كأنه عليه الصلاة والسلام فهم من امتناع أبي طالب من الشهادة في تلك الحالة أنه ظن أن ذلك لا ينفعه؛ لوقوعه عند الموت؛ أو لكونه لم يتمكن من سائر الأعمال الصالحة كالصلاة وغيرها، فلذلك ذكر له المحاجَجة، وأما لفظ (الشهادة)، فيحتمل أنه يكون ظنَّ أن ذلك لا ينفعه إذ لم يحضرْ حينئذ أحد من المؤمنين مع النبي ﷺ فطيَّب قلبه بأن يشهد له بها فينفعه، وهذا يدل على «أن التوبة مقبولةٌ ولو في شدة مرض الموت حتى يحصل إلى المعاينة، فلا يقبل»[٣]، كما يدل هذا الحديث على

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ١٦/ ٢٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، ح ٣٨٨٤.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ١٩٥-١٩٦ وانظر ما ذكره ابن بطال في شرح صحيح البخاري ٣/ ٣٤٤.

أن الكافر إذا شهد شهادة الحق قبل المعاينة وتحقّق الموت نجا من العذاب؛ لأن الإسلام يجب ما قبله[١].

ونقل ابن حجر عن الكرماني قوله بأن عرض الرسول ﷺ الشهادة على عمه كان عند حضور علامات الوفاة، «وإلا، فلو كان انتهى إلى المعاينة لم ينفعه الإيمان لو آمن، ويدل على الأول ما وقع من المراجعة بينه وبينهم»، ثم قال ابن حجر: «ويُحتمل أن يكون انتهى إلى تلك الحالة، لكن رجا النبي ﷺ أنه إذا أقرَّ بالتوحيد، ولو في تلك الحالة أن ذلك ينفعه بخصوصه، وتسوغ شفاعته ﷺ لمكانه منه، ولهذا قال: «**أُجادل لك بها وأشفعُ لك**»...، ويؤيد الخصوصة أنه بعد أن امتنع من الإقرار بالتوحيد، وقال (هو على ملة عبد المطلب) ومات على ذلك أن النبي ﷺ لم يترك الشفاعة له، بل شفع له حتى خفَّف عنه العذاب بالنسبة لغيره، وكان ذلك من الخصائص في حقِّه»[٢]، يشير في هذا إلى ما ثبت أن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال للنبي ﷺ: «ما أغنيتَ عن عمّك؛ فإنه كان يحوطُك ويغضب لك»؟ قال ﷺ: «**هو في ضَحْضاحٍ مِنْ نار، ولولا أنا لكان في الدرْك الأسفل من النار**»[٣].

وقال ابن بطال (ت ٤٤٩هـ): «فإن قال قائل: فأيُّ مُحاجَّةٍ يحتاج إليها مَنْ وافى ربَّه بما يُدخله به الجنة؟ فالجواب: أنه يحتمل وجوهًا من التأويل:

أحدها: أن يكون ظنَّ عليه السلام أن عمَّه اعتقد أن مَنْ آمن في مثل حاله

---

(١) انظر: فتح الباري ص١٩٦.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٥٠٦-٥٠٧.

(٣) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، ح ٣٨٨٣.

لا ينفعه إيمانه؛ إذ لم يقارنْه عملٌ سواه من صلاة وصيام وزكاة وحج وشرائط الإسلام كلِّها، فأعلمَه عليه السلام أن من قال: لا إله إلا الله عند موته أنه يدخل في جملة المؤمنين، وإن تعرَّى من عمل سواها.

ويحتمل وجهًا آخر: وهو أن يكون أبو طالب قد عاينَ أمرَ الآخرة، وأيقن بالموت، وصار في حالةِ مَنْ لا ينتفع بالإيمان لو آمن، وهو الوقت الذي قال فيه: هو على مِلَّة عبد المطلب، عند خروج نفسه، فرجا له عليه السلام إن قال: لا إله إلا الله، وأيقن بنبوته أن يشفع له بذلك، ويُحاجَّ له عند الله في أن يتجاوز عنه، ويتقبل منه إيمانه في تلك الحال، ويكون ذلك خاصًا لأبي طالب وحده؛ لمكانه من الحماية والمدافعة عن النبي عليه السلام.

ويحتمل وجهًا آخر: وهو أن أبا طالب كان ممن عاين براهين النبي عليه السلام وصِدْقَ معجزاته، ولم يشكَّ في صحة نبوته، وإن كان ممن حملَتْه الأَنَفَةُ وحمِيَّة الجاهلية على تكذيب النبي، فاستحق أبو طالب ونظراؤه على ذلك من عظيم الوِزْر وكبير الإثم أنْ باؤوا بإثمهم على تكذيب النبي عليه السلام، فرجا له عليه السلام المحاجَّةَ بكلمة الإخلاص عند الله، حتى يسقط عنه إثم العناد والتكذيب لمَّا قد تبين حقيقته وإثم من اقتدى به في ذلك، وإن كان الإسلام يهدم ما قبله، لكن آنَسَه بقوله: «**أُحاجُّ لك بها عند الله**»، لئلا يتردَّد في الإيمان، ولا يتوقف عليه؛ لتماديه على خلاف ما تبين حقيقته، وتورطه في أنه كان مُضِلاً لغيره.

وقيل: إن قوله: «**أُحاجُّ لك بها عند الله**» كقوله: «**أشهد لك بها عند الله**»؛ لأن الشهادة المرجّحة له في طلب حقِّه؛ ولذلك ذكر البخاري هذا الحديث في هذا

الباب بلفظ (الشهادة) [١] لأنه أقرب للتأويل، وذكر قوله: « **أُحاجُّ لك بها عند الله**» في قصة أبي طالب في كتاب مبعث النبي عليه السلام، لاحتمالها التأويل»[٢].

ونصَّ بعض أهل العلم على أن الخبر الذي فيه حضور أبي طالب الوفاةَ مطابقٌ لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ ، وبالتالي فإن الأوضح أن يقال: بأن ذلك خاصٌّ بالنبي ﷺ مع أبي طالب، واستدلَّ مَنْ قال بهذا القول بأمرين:

الأول: أن الرسول ﷺ قال: «**كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله**»، ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: تُخرجك مِنَ النار.

الثاني: أنه سبحانه أذِن للنبي ﷺ بالشفاعة لعمِّه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له، والشفاعة له ليخففَ عنه العذاب[٣].

هذه أقوال بعض أهل العلم في قصة أبي طالب، ولعل الأقربَ أن تكون خاصَّةً به.

وعلى كل الأحوال، فإن مما لا خلاف فيه أن الذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على المعاصي.حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ، وحشْرَج بنفسه، وعاين الملائكة قد أقبلوا عليه لقبض روحه، وقد قلب على نفسه، وحِيلَ بينه وبين فهمه بشُغله بكُرَب حشرجته وغرغرته قال: ﴿ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ فليس لهذا

---

(١) أي في باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، من كتاب الجنائز.

(٢) شرح صحيح البخاري ٣/ ٣٤٤-٣٤٦.

(٣) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ٣٥٤.

عند الله تبارك وتعالى توبةٌ؛ لأنه قال ما قال في غير حالة توبة[١].

فإن قيل: هل تصحُّ توبة مَنْ حُكم عليه بالقتل، أو حُصِرَ في مكان يحترق، أو كان في طائرة حدث فيها خلل، وبدأت تهوي إلى الأرض، ونحو هذه الحالات.

فإنه يقال: نعم، تصحُّ توبةُ هؤلاء؛ لأنهم ربما ينجون من الموت، فمن هوت به الطائرة، أو كان في بيت يحترق، فربما ينجو، وكذلك مَنْ حُكم عليه بالقتل، فربما يُرفع القتل عنه[٢].

(١) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٤/ ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) انظر: فتاوى الشيخ محمد الصالح العثيمين ٢/ ٩٩٠.

المبحث الخامس

سؤال الرجعة إلى الدنيا عند الاحتضار

الكافرون والمفرّطون في أمر الله تعالى يسألون الله عز وجل حال الاحتضار الرجعةَ إلى الحياة الدنيا؛ ليُصلحوا ما كان أفسدوه في مدة حياتهم، قال تعالى عنهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

فالكافرون يسألون الرجعةَ عند الاحتضار؛ ليسلموا، والعُصاة ليتوبوا ويعملوا صالحًا، فلا يُجابون إلى ذلك، كما قال تعالى ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ و ﴿ كَلَّآ ﴾ حرف ردع وزجر؛ أي: لا نُجيبه إلى ما طلب، ولا نقبل منه، وقوله: ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ ، أي: لابد أن يقولَها لا محالةَ كلُّ محتضر ظالم، ولو رُدَّ لَمَا عمل صالحًا، ولكن يكذب في مقالته.

يقول الطبري في تفسيره للآية السابقة: «يقول تعالى ذِكْره: حتى إذا جاء أحدَ هؤلاء المشركين الموتُ، وعاين نزول أمر الله به، قال لعظيم ما يعاين، مما يقدم عليه من عذاب الله تندُّمًا على ما فات، وتلهُّفًا على ما فرَّط فيه قبل ذلك من طاعة الله ومسألته للإقالة: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ إلى الدنيا فرُدُّوني إليها، ﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا ﴾، يقول: كي أعملَ صالحًا ﴿ فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ قبل اليوم، من العمل، فضيّعته، وفرطتُ فيه»[1].

ويقول السعدي: «يخبر تعالى عن حال مَنْ حضره الموت مِنَ المفرطين الظالمين أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، ويشاهد قُبْحَ أعماله، فيطلب

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ١٨/ ٤٠.

الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتُّع بلذَّاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك ليقول: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله، ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا رجعةَ له، ولا إهمال، وقد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: مقالته التي تمنَّى فيها الرجوعَ إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾؛ أي: مجرد قول اللسان، لا يفيد صاحبَه إلا الحسرةَ والندمَ، وهو أيضًا غيرُ صادق في ذلك؛ فإنه لو رُدّ لعاد لِمَا نُهِي عنه»[1].

ويدل على سؤال الرجعةَ وتمنِّيها حين الاحتضار: قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩-١١].

فكل مفرّط يندم عند الاحتضار، ويتحسَّر على ما فرّط في وقت الإمكان، ويسأل الرجعة إلى الدنيا، ولو لمدة يسيرة، ليستعتبَ ويستدركَ ما فاته وما فرّط فيه، ويتصدق، ويكون من الصالحين، لكن هيهات؛ فهذا السؤال والتمنِّي قد فات وقتُه، ولا يمكن تداركُه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: لا يؤخر أحدًا بعد حلول أجله، وهو سبحانه أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رُدَّ لعاد إلى شرِّ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٥٠٨.

مما كان عليه[١].

قال أبو جعفر الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذِكْره ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ أيها المؤمنون بالله ورسوله من الأموال التي رزقناكم ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ ﴾ إذا نزل به الموت: يارب هلَّا أخَّرتني، فتمهل لي في الأجل ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ يقول: فأُزكِّي مالي، ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يقول بطاعتك وأُؤدِّي فرائضك، وقيل: عَنى بقوله: ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وأحجُّ بيتَك الحرام»[٢].

وفي موضع آخر من كتاب الله تعالى يخبر جل وعلا عن حال الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب، وحُلولِ الأجل أنهم يسألون الرجعةَ وتأخيرَ الأجل؛ نادمين على ما فعلوا، قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] ؛ وهذا كله أملٌ في التخلُّص من العذاب الأليم، وإلا فهم كاذبون في وعودهم؛ ولهذا يُوبَّخون بأن يقال لهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤،٤٥]، فهم يُوبَّخون بتذكيرهم بكذِبهم حين أقسموا أنهم لن يزولوا عن الدنيا إلى الآخرة،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٧٣ ، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٨٠٢.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن ٢٨/ ٧٦.

وهم يرَوْن ويعلمون ما أحلَّ بالأمم المكذِّبة قبلَهم، وما نزل بهم من العقوبات، ولكنهم لم يعتبروا ولم يتَّعظوا، بل أعرضوا واستمروا على باطلهم وظُلمهم حتى وصلوا إلى اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذارٌ ولا تُقبل فيه توبة[1].

قال الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ): «قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] وما تضمَّنته الآية الكريمة من أن الكافر والمفرّط في عمل الخير إذا حضر أحدَهما الموتُ طلبا الرجعة إلى الحياة؛ ليعملا العمل الصالح الذي يُدخلهما الجنةَ، ويتداركا به ما سلف منهما من الكفر والتَّفريط، وأنهما لا يُجابان إلى ذلك، كما دلَّ عليه حرف الزجر والردع الذي هو (كلا)، جاء موضّحًا في مواضعَ أُخَرَ؛ كقوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وكما أنهم يطلبون الرجعة عند حضور الموت، ليَصلحوا أعمالَهم؛ فإنهم يطلبون ذلك يومَ القيامة، ومعلومٌ أنهم لا يجابون إلى ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا ﴾ الظاهر أن لعلَّ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٢٢، ٥٢٣، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٣٨١-٣٨٢.

فيه للتعليل؛ أي: ارجعون لأجل أن أعمل صالحًا، وقيل: هي للترجِّي والتوقُّع؛ لأنه غيرُ جازم بأنه إذا رُدَّ للدنيا عمل صالحًا، والأول أظهر، والعمل الصالح يشمل جميع الأعمال من الشهادتين والحج، الذي كان قد فرّط فيه، والصلوات والزكاة، ونحو ذلك، والعلمُ عند الله تعالى، وقوله: ﴿كَلَّآ﴾ كلمة زجر، وهي دالَّةٌ على أن الرجعةَ التي طلبها لا يُعطاها كما هو واضح»[1].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥/ ٨٢١، ٨٢٢.

المبحث السادس

حضور الشيطان حين الاحتضار

روى مسلم في «صحيحه» بسنده عن جابر بن عبد الله، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان يحضُر أحدَكم عند كلِّ شيء مِنْ شأنه، حتى يحضُرَه عند طعامه، فإذا سقطت مِنْ أحدكمُ اللقمةُ، فليُمِطْ ما كان بها مِنْ أذَى، ثم ليأكُلْها، ولا يدَعها للشيطان، فإذا فرغ، فليَلْعَق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكونُ البركة**»[(١)].

فقوله ﷺ في أول هذا الحديث: «**إن الشيطانَ يحضُر أحدَكم عند كلِّ شيء من شأنه**» فيه تحذيرٌ للعباد من الشيطان، وتنبيهٌ على ملازمته للإنسان في تصرُّفاته وجميع أحواله؛ ليتأهَّبوا ويحترِزوا منه، ولا يغترُّوا بما يزيِّنه لهم[(٢)].

وقد استدل بعض العلماء بهذا الحديث على حضور الشيطان عند المحتضِر؛ لإغوائه وافتتانه، كما استدلُّوا أيضًا بما رواه أبو هريرة ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: (**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**)[(٣)].

قال ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ): «فتنة المحيا ما يعرِضُ للإنسان مدةَ حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات، وأعظمُها -والعياذ بالله- أمر الخاتمة عند الموت، وفتنةُ الممات يجوز أن يُرادَ بها الفتنةُ عند الموت، أُضيفت إليه لقُربها منه، ويكون المراد بفتنة المحيا على هذا ما قبل ذلك، ويجوز أن يراد بها فتنة القبر»[(٤)].

كما استدل شيخ الإسلام ابن تيمية بحديث الاستعاذة مِنْ فتنة المحيا والممات

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب استحباب لعق الأصابع والقصعة وأكل اللقمة الساقطة، ح٢٠٣٣.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٣/ ٢٠٥، ٢٠٦.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر، ح ١٣٧٧.

(٤) نقلاً عن فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢/ ٣١٩.

على حضور الشيطان عند المحتضِر لإغوائه، وأنه قد يعرِض الأديان على بعض العباد، حيث قال رحمه الله: «أمَّا عرض الأديان على العبد وقتَ الموت، فليس هو أمرًا عامًا لكل أحد، ولا هو أيضًا منتفيًا عن كلِّ أحد، بل مِنَ الناس مَنْ تُعرض عليه الأديان قبل موته، ومنهم من لا تعرض عليه، وقد وقع ذلك لأقوام، وهذا كلُّه مِنْ فتنة المحيا والممات التي أُمرنا أن نستعيذَ منها في صلاتنا، منها ما في الحديث الصحيح: «**أمرنا النبيُّ ﷺ أن نستعيذَ في صلاتنا مِنْ أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**»[(١)]، ولكن وقت الموت أحرصُ ما يكون الشيطان على إغواء بني آدم؛ لأنه وقت الحاجة، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**الأعمال بخواتيمها**»[(٢)] وقال ﷺ: «**إن العبد ليعمَل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبِق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلَها، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخُلَها**»[(٣)]، ولهذا يقال: إن مَنْ لم يحجَّ يُخاف عليه مِنْ ذلك، لِمَا روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ ملك زادًا أو راحلةً تُبَلِّغه إلى بيت الله الحرام ولم يحجَّ، فليمت إن شاء يهوديًا، وإن شاء نصرانيًا**»[(٤)][(٥)].

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة ت (١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الأعمال بالخواتيم، وما يخاف منها، ح ٦٤٩٣.

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ح ٧٤٥٤.

(٤) رواه الترمذي في سننه، كتاب الحج، باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج، ح ٨١٢، وقال عنه الألباني: (ضعيف)، انظر ضعيف سنن الترمذي ص٨٨.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٤/ ٢٥٥، ٢٥٦.

وقال في موضع آخر: «وأما عَرْضُ الأديان وقتَ الموت، فيُبتلى به بعض الناس دون بعض»[١].

وذكر ابن حجر أن الأكثر والأغلب في سُوء الخاتمة أنه لا يقع إلا لمن في طوِيَّته فسادٌ أو ارتيابٌ، ويكثرُ وقوعه للمُصرِّ على الكبائر والمجترئ على العظائم؛ إذ يهجُم عليه الموت بغتةً، فيصطلمه[٢] الشيطان عند تلك الصدمة، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته[٣].

ويدلُّ على حضور الشيطان عند المحتضر قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨]، فالمعنى: أعوذ بك أن يحضُرَني الشيطان في أمرٍ مِنْ أموري كائنًا ما كان، سواء كان ذلك وقتَ تلاوة القرآن، أو عند حضور الموت، أو غير ذلك مِنْ جميع الشؤون في جميع الأوقات[٤].

وتحدث أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح المقدسي عن حضور الشيطان عند المحتضِر تحت عنوان «الفصل الثاني والعشرون في اجتهاد الشيطان على المؤمن عند الموت»، واستشهد بما رواه النسائي وأبو داود بسندَيْهما عن أبي اليسَر، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك مِنَ التَّردِّي،**

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ١٤/ ٢٠٢.

(٢) الاصطلام: الاستئصال والهلاك والقطع، انظر: لسان العرب ٢/ ٤٦٩.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ١١/ ٤٨٩، ٤٩٠.

(٤) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥/ ٨١٩.

والهدْم، والغرق، والحريق، وأعوذ بك أن يتخبَّطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموتَ في سبيلك مُدْبرًا، وأعوذ بك أن أموتَ لديغًا»[(١)].

فقوله ﷺ: «وأعوذ بك أن يتخبَّطني الشيطانُ عند الموت»، قال الخطابي (ت٣٨٨هـ) في شرحه: «هو أن يستولي عليه عند مفارقة الدنيا، فيُضِلَّه، ويَحُول بينه وبين التوبة، أو يَعُوَقه عن إصلاح شأنه، والخروج من مظلمةٍ تكون قبلَه، أو يُؤْيِسه مِنْ رحمة الله، أو يكره له الموت، ويؤسفه على حياة الدنيا، فلا يرضى بما قضاه الله عليه مِنَ الفناء والنُّقلة إلى الدار الآخرة، فيختتم له، ويلقى اللهَ وهو ساخط عليه»[(٢)].

ويقول ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ): «وقد يتعرَّض إبليسُ للمريض، فيؤذيه في دينه ودنياه، وقد يستولي على الإنسان فيضِلَّه في اعتقاده، وربما حال بينه وبين التوبة... وربما جاء الاعتراض على المقدَّر؛ فينبغي للمؤمن أن يعلَم أن تلك الساعة هي مصدريةٌ للحرب، وحين يحمَى الوطيس، فينبغي أن يتجلَّد، ويستعينَ بالله على العدو»[(٣)].

وقد رُوي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال: حضرتُ وفاة أبي أحمدَ، وبيدي الخرقة لأشدَّ لَحْييه، فكان يغرق ثم يفيق، ويقول بيده: لا بعدُ، لا بعدُ، فعل

---

(١) رواه النسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من التردي والهدم، ح ٥٥٤٦، ورواه أبـو داود في سننه، كتاب الصلاة، بـاب في الاستعاذة، ح ١٥٥٢، وصـححه الألبـاني في صـحيح سـنن النسائي ٣/ ٤٨٣، ح ٥٥٤٦ و٥٥٤٧ و٥٥٤٨.

(٢) معالم السنن، شرح على سنن أبي دود ٢/ ١٩٤.

(٣) الثبات عند المات ص٤١، ٤٢.

هذا مراراً، فقلت له: يا أبت، أيُّ شيء ما يبدو منك؟ فقال: إن الشيطان قائمٌ بحذائي عاضٌّ على أنامله، يقول: يا أحمدُ فُتَّني، وأنا أقول: لا بعدُ، لا بعدُ، حتى أموتَ[١].

وقال القرطبي: سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي بثغر الإسكندرية يقول: حضرتُ أخا شيخِنا أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة وقد احتُضر، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فكان يقول: لا، لا، فلما أفاق ذكرنا له ذلك، فقال: أتاني شيطانان، عن يميني وعن شمالي، يقول أحدهما: مت يهوديًا، فإنه خيرُ الأديان، والآخر يقول: مت نصرانيًا، فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما: لا، لا[٢].

وقد رُوي أن الشيطان لا يكون في حال أشدَّ على ابن آدم منه في حال الموت، وهو يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنْ فاتكم اليومَ لم تلحقوه[٣].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٤١.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٦٨.

(٣) انظر: معالم السنن حاشية على سنن أبي داود ٢/ ١٩٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٤/ ٢٥٠.

المبحث السابع

مشروعية تلقين المحتضر قول:

لا إله إلا الله، وقول الخير عنده

يُشرع تلقينُ المحتضر لا إله إلا الله؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله**»(١).

قال النووي: «معناه: من حضره الموتُ، والمراد: ذَكِّروه لا إله إلا الله؛ لتكونَ آخرَ كلامه، والأمر بهذا التلقين أمرُ ندب، وأجمع العلماء على هذا التلقين»(٢).

وقال القرطبي: «أي: قولوا ذلك، وذَكِّروهم به عند الموت، وسماهم موتى؛ لأن الموت قد حضرهم»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «تلقينُ الميت سنة مأمورٌ بها»(٤).

وروى معاذ بن جبل ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(٥). وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله؛ فإنه مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله عند الموت دخل الجنة يومًا مِنَ الدهر، وإنْ أصابَهَ قبل ذلك ما أصابه**»(٦). وقال ﷺ: «**خيرُ العمل أن تُفارِقَ الدنيا ولسانُك رطبٌ مِنْ ذكر الله**»(٧).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب تلقين الموتى لا إله إلا الله، ح ٩١٦.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ٢١٩.

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٦١.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٢٤/ ٢٩٧.

(٥) رواه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب في التلقين، ح ٣١١٦، وحسَّنه الألباني في إرواء الغليل ٣/ ١٤٩، ح ٦٨٧.

(٦) رواه ابن حبان في صحيحه ٧١٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢/ ٩١٦، ح ١٦٥٢.

(٧) رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٩٠، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١١١، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٤٥١، ح ١٨٣٦.

وقد ذكر النووي كراهة العلماء للإكثار على المحتضِر بالتلقين والموالاة، لئلا يضْجَر بضيق حاله وشدَّة كُرَبه؛ فيكره ذلك، أو يتكلَّمُ بما لا يليق؛ ولهذا قالوا: إذا نطق بالشهادة مرةً ولا يكرّر عليه إلا أن يتكلَم بعده بكلامٍ آخرَ، فيعاد التعريض به؛ فيكون آخرَ كلامِه[١].

وقال الترمذي (ت ٢٧٩هـ): «وقد كان يستحبُّ أن يلقَّنَ المريضُ عند موته قول: لا إله إلا الله، وقال بعض أهل العلم: إذا قال ذلك مرةً، فما لم يتكلّم بعد ذلك، فلا ينبغي أن يلقَّنَ، ولا يُكثَر عليه هذا، وروي عن ابن المبارك أنه لَمَّا حضرته الوفاة جعل رجلٌ يلقّنه لا إله إلا الله، وأكثرَ عليه، فقال عبدُ الله: إذا قلت مرةً فأنا على ذلك ما لم أتكلَّم بكلام، وإنما معنى قول عبد الله إنما أراد ما رُوي عن النبي ﷺ: **«من كان آخرَ قوله: لا إله إلا الله دخل الجنة»**[٢].

وقال القرطبي: «قال علماؤنا: تلقينُ الموتى هذه الكلمة سنةٌ مأثورة عمل بها المسلمون؛ وذلك ليكون آخرَ كلامهم لا إله إلا الله، فيُختم له بالسعادة، وليدخل في عموم قوله عليه السلام: « **مَنْ كان آخرَ كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة** »، ولينبِّه المحتضرَ على ما يدفع به الشيطان؛ فإنه يتعرَّض للمحتضر ليُفسِد عليه عقيدتَه، فإذا تلقَّنها المحتضر، وقالها مرةً واحدةً، فلا تعادُ إذا هو تلقَّنها أو فهم ذلك عنه»[٣]؛ لأنه قد يتبرَّم مِنَ الإلحاح والإعادة، فيثقِّلُها الشيطان عليه، فيكون سببًا لسوء الخاتمة[٤].

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ٢١٩، وشرح السنة ٥/ ٢٩٦.

(٢) سنن الترمذي ٣/ ٣٠٧،٣٠٨، وانظر صحيح سنن الترمذي ١/ ٥٠٢.

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٦٢.

(٤) انظر: المصدر السابق، الصفحة نفسها، وانظر ما قاله أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، في كتاب الموت، ص٧٨.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن المراد بتلقين المحتضر الشهادة: ذِكْرُها عنده وتسميعُها إياه، دون أمرِه بقولها[١]، والحق أن ظاهر قوله ﷺ: «**لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله**» يدل على أن المرادَ أمرُه بأن يقولَها، لا مجردَ ذكرِ الشهادة عنده وتسميعِها إياه، كما يشهد لذلك ما رواه أنس ﷺ: «أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من الأنصار، فقال: **يا خال، قل: لا إله إلا الله، فقال: أخالٌ أم عمٌّ؟ فقال: بل خال، فقال: فخيرٌ لي أن أقول: لا إله إلا الله؟ فقال النبي ﷺ: نعم**»[٢].

قال القرطبي «لابد من تلقين الميت، وتذكيره بالشهادة، وإن كان على غايةٍ من التيقُّظ»[٣]، وقال ابن عثيمين (ت ١٤٢١هـ): «أهل العلم قالوا: يُسَنُّ تلقينُ المحتضر لا إله إلا الله، لكن بدون قول: قل؛ لأنه ربما مَعَ الضَّجر يقول: لا؛ لضِيقِ صدرِه مع نزول الموت، أو يُكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث [أي: في قصة تلقين الرسول ﷺ لعمِّه أبي طالب] قال: (قل)، والجواب: أنَّ أبا طالب كان كافرًا، فإذا قيل له: قل، وأبى، فهو باقٍ على كفره، لم يضرَّه التلقينُ بهذا؛ فإمَّا أن يبقى على كفره، ولا ضرر عليه بهذا التلقين، وإما أن يهديه الله، بخلاف المسلم، فهو على خطرٍ؛ لأنه ربما يضرُّه التلقين على هذا الوجه»[٤].

وقد يرِدُ إشكال عدم ذِكْرِ مشروعية تلقين المحتضر شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ،

---

(١) أشار إليه السندي (ت ٩١١هـ) في حاشيته على سنن النسائي ٣/ ٥، والسهارنفوري (ت ١٣٤٦هـ) في بذل المجهود في حل أبي داود ١٤/ ٧٩، ٨٠، وغيرهما.

(٢) رواه الإمام أحمد ٣/ ١٥٢-١٥٤-٢٦٨، بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٦٤.

(٤) القول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ١٥٥.

والجواب على ذلك: ما ذكره ابن حجر بقوله:

«والمراد بقول: لا إله إلا الله في هذا الحديث وغيرِه كلمتا الشهادة، فلا يردُ إشكال ترك ذكر الرسالة»، ثم نقل قول ابن المنيِّر: «قول لا إله إلا الله لقبٌ جرى على النطق بالشهادتين شرعًا»[(١)].

وقد روى ابن ماجة بسنده عن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ نفس تموتُ وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، يرجِعُ ذلك إلى قلبِ مؤمنٍ إلا غفر الله لها**»[(٢)].

ويشهد له ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، صادقًا من قلبه دخل الجنة**»[(٣)].

وما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ، غيرَ شاكٍّ فيهما، إلا دخل الجنة**»[(٤)].

فدلت هذه النصوص على أن تلقين المحتضر: لا إله إلا الله، ونُطقه بها متضمِّنٌ لإيمانه بأن محمدًا رسولُ الله.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣/ ١١٠ وانظر ٧/ ١٩٦.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب فضل لا إله إلا الله، ح ٣٧٩٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣١٨، ح ٣٠٦٣، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٥/ ٢٤٧، ح ٢٢٧٨.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٢٩، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٥/ ٣٤٨ تحت حديث رقم ٢٢٧٨.

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، ح ٢٧.

قال ابن القيم: «لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادةٌ مِنْ عبد مُوقِنٍ بها، عارفٍ بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسُه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عِزّها، وخرج منها حرصُها على الدنيا وفُضولها، واستخْذَت بين يدي ربِّها وفاطرِها ومولاها الحقِّ أذلَّ ما كانت له، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرَّد منها التوحيدُ بانقطاع أسباب الشرك، وتحقق بطلانُه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولةً بها، واجتمع همُّها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصيرِ إليه، فوجَّه العبد وجهَه بكلِّيته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمِّه عليه، فاستسلم وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوى سرُّه وعلانيته، فقال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه، وقد تخلَّص قلبُه من التعلُّق بغيره، والالتفات إلى ما سواه، قد خرجت الدنيا كلُّها من قلبه، وشارف القدومَ على ربِّه، وخمدت نيرانُ شهوته، وامتلأ قلبُه من الآخرة، فصارت نُصْبَ عينيه، وصارت الدنيا وراءَ ظهره، فكانت تلك الشهادةُ الخالصةُ خاتمةَ عمله، فطهَّرته من ذنوبه، وأدخلته على ربِّه؛ لأنه لقي ربَّه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرُها باطنَها، وسرُّها علانيتَها، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلِها، وفرّ إلى الله من الناس، وأنِسَ به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلبٍ مشحون بالشهوات وحبِّ الحياة وأسبابها، ونفسٍ مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو تجرَّدت كتجرُّدها عند الموت، لكان لها نبأٌ آخرُ، وعيشٌ آخرُ سوى عيشها البهيميِّ»[1].

---

(١) الفوائد ص ٥٥-٥٦.

فإن قيل: هل يُعرض الإسلام على الصبي الكافر؟

فيقال: عنون البخاري (ت ٢٥٦هـ) بهذا العنوان (هل يُعرض على الصبي الإسلام) للباب التاسع والسبعين من كتاب الجنائز، كما عنون بـ(كيف يُعرض الإسلام على الصبي) للباب الثامن والسبعين بعد المائة من كتاب الجهاد، ثم أورد فيهما ما رواه بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لابن صيَّاد[١]، وقد قاربَ الحُلُم: «**أتشهدُ أنِّي رسول الله**»[٢].

وأورد في كتاب الجنائز ما رواه بسنده عن أنس ﷺ، قال: (كان غلامٌ يهوديٌّ يخدُم النبيَّ ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعودُه، فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلم**»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطِعْ أبا القاسم ﷺ، فأسلَمَ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: (**الحمد لله الذي أنقذَه مِنَ النار**)، [٣] وفي رواية «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[٤].

قال ابن حجر «وفي الحديث جوازُ استخدام المشرك، وعيادتُه إذا مرض، وفيه حُسْن العهد، واستخدام الصغير، وعرْضُ الإسلام على الصبي، ولولا صحّته منه

---

(١) هو صافي بن صياد، كان أبوه يهوديًا، واشتهر عن صافي التكهُّن وهو صغير؛ فجاءه الرسول ﷺ ليختبره. انظر: تجريد أسماء الصحابة ١/ ٣١٩، وفتح الباري ٣/ ٢٢٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلَّى عليه، وهل يُعرض على الصبي الإسلام، ح ١٣٥٤، وكتاب الجهاد، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي، ح ٣٠٥٥.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلَّى عليه، وهل يُعرض على الصبي الإسلام، ح ١٣٥٦.

(٤) في سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب في عيادة الذمي، ح ٣٠٩٥.

فيه»[١]، وقال النووي: «في هذا الحديث دليل على استحباب إغماضِ الميت، وأجمع المسلمون على ذلك، قالوا: والحكمة فيه ألا يقبُحَ بمنظره لو تُرك إغماضه... وفي استحباب الدعاء للميت عند موته ولأهله وذريته بأمور الآخرة والدنيا»[٢].

وقال القرطبي: «قال علماؤنا: قوله عليه السلام: **«إذا حضرتمُ المريضَ أو الميت فقولوا خيرًا»** أمرُ ندبٍ وتعليمٍ بما يُقال عند المريض أو الميت، وإخبارٌ بتأمين الملائكة على دعاءِ مَنْ هناك؛ ولهذا استحبَّ العلماءُ أن يحضرَ الميتَ الصالحون، وأهلُ الخير حالةَ موته ليذكِّروه، ويدعوا له ولمن يخلُفُه، ويقولوا خيرًا، فيجتمع دعاؤهم وتأمينُ الملائكة، فينتفع بذلك الميتُ ومَنْ يصاب به ومن يخلفُه»[٣].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضر ح ٩٢٠

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ٢٢٣.

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٦٥، ٦٦.

ما عرضه عليه، وفي قوله: «**أنقذَه مِنَ النار**» دلالة على أنه صحَّ إسلامه»[١].

كما دل الحديث على جواز حضور المسلم وفاةَ الكافر؛ ليعرِض الإسلام عليه، رجاءَ أن يسلم[٢].

وعلى من يحضُر المحتضرَ ألا يقول إلا خيرًا؛ فعن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا حضرتُمُ المريضَ أو الميتَ، فقولوا خيرًا؛ فإن الملائكةَ يؤمِّنون على ما تقولون..**»[٣] الحديث.

قال النووي في شرحه هذا الحديث: «فيه الندبُ إلى قول الخير حينئذٍ من الدعاء والاستغفار له، وطلب اللّطف به، والتخفيف عنه، ونحوه، وفيه حضورُ الملائكة حينئذ وتأمينُهم»[٤].

وعنها رضي الله عنها، قالت: دخل رسولُ الله ﷺ على أبي سلمةَ، وقد شقّ بصرَه، فأغمضه، ثم قال: «**إن الروحَ إذا قُبِضَ تبِعَه البصر**» فضجَّ ناسٌ من أهله، فقال: «**لا تدعُوا على أنفسكم إلا بخيرٍ؛ فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون**»، ثم قال: «**اللهم اغفِرْ لأبي سلمةَ، وارفع درجته في المهديين، واخلُفْه في عَقبِه في الغابرين، واغفِرْ لنا وله يارَبَّ العالمين، وافسَحْ له في قبره، ونوِّر له**

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣/ ٢٢١ وانظر ٦/ ١٧٢، وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ١٨/ ١٩١.

(٢) انظر أحكام الجنائز ص١٢.

(٣) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المريض والميت، ح ٩١٩.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ٢٢٢.

المبحث الثامن

وجوب إحسان الظن بالله تعالى

وبخاصة عند الموت

يجب على المسلم أن يُحسن ظنَّه بربه سبحانه وتعالى في جميع أحواله، ويتأكد ذلك عند الموت.

روى جابر بن عبد الله ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «**لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظنَّ بالله**»(١).

قال أبو سليمان الخطَّابي: «إنما يُحسِنُ بالله الظنَّ من حَسُنَ عملُه، فكأنه قال: أحسِنوا أعمالَكم يَحْسُنْ ظنُّكم بالله، فإن مَنْ ساء عملُه ساء ظنُّه، وقد يكون أيضًا حُسْنُ الظن بالله من ناحية الرجاء، وتأميلِ العفو، والله جوادٌ كريم»(٢).

وقال النووي: «قال العلماء: هذا تحذيرٌ مِنَ القنوط، وحثٌّ على الرجاء عند الخاتمة، قال العلماء: معنى حُسنِ الظن بالله تعالى: أن يظنَّ أنه يرحمه، ويعفُوَ عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا، ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوفُ أرجحَ؛ فإذا دنت أماراتُ الموت غلب الرجاء، أو محضَه؛ لأن مقصودَ الخوفِ: الانكفافُ عن المعاصي والقبائح، والحرصُ على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذَّر ذلك أو معظمُه في هذه الحال، فاستُحبَّ إحسانُ الظن، المتضمِّن للافتقار إلى الله تعالى، والإذعانِ له. ويؤيدُه الحديثُ المذكور بعده: «**يُبعث كلُّ عبد على ما مات عليه**»(٣)؛ ولهذا عقَّبه مسلم للحديث الأول، قال العلماء: معناه يُبعث على

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، ح ٢٨٧٧.

(٢) معالم السنن، شرح على سنن أبي داود ٣/ ٤٨٤، شرح حديث ٣١١٣.

(٣) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، ح ٢٨٧٨.

الحالة التي مات عليها، ومثلُه الحديث الآخر بعده»[١] يشير إلى قوله ﷺ: «**إذا أراد اللهُ بقوم عذابًا أصاب العذابُ مَنْ كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم**»[٢].

وروى البغوي في باب حُسن الظن بالله تعالى، من كتاب الجنائز عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ دخل على شابٍّ وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدُك؟**» فقال: والله يا رسول الله، إني لأرجو اللهَ، وإني أخافُ ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه اللهُ ما يرجو، وآمَنَه مما يخاف**»[٣].

وروى البغوي عن ابن عباس أنه قال: «إذا رأيتمُ الرجلَ بالموت، فبشِّروه؛ ليلقى ربَّه وهو حَسَنُ الظنِّ به، وإذا كان حيًا، فخوِّفوه بربه عز وجل»[٤].

وقال القرطبي: «حُسْنُ الظن بالله تعالى ينبغي أن يكون أَغلب على العبد عند الموت منه في حالة الصحة، وهو أنَّ الله تعالى يرحمه، ويتجاوز عنه، ويغفرُ له، وينبغي لجلسائه أن يذكِّروه بذلك حتى يدخلَ في قوله تعالى: (**أنا عند ظنِّ عبدي بي**)»[٥][٦]، وفي حديث

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ٢١٠.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، ح ٢٨٧٩.

(٣) شرح السنة ٥/ ٢٧٤، ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ح ٤٢٦١، وقال عنه الألباني: (حسن) في صحيح سنن الترمذي ١/ ٥٠٣، ح ٩٨٣، وفي صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤٢٠، ح ٣٤٣٦.

(٤) شرح السنة ٥/ ٢٧٥.

(٥) الحديث القدسي رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ح ٧٤٠٥.

(٦) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٥٨، ٥٩.

آخر ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًا فشرٌّ**»[١].

وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله سبحانه وتعالى: أنا عند ظني عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني**»[٢] الحديث.

قال ابن حجر: «وهو -كما قال أهل التحقيق- مقيَّد بالمحتضر، ويؤيد ذلك حديث: (**لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظنَّ بالله**)[٣]»[٤]، ولكن ظاهر الحديث لا يدل على تقييده بالمحتضر، بل في جميع أحوال العبد.

ويقول ابن الجوزي: «وأما حُسْنُ الظن، فهو مستحبٌّ في هذا الوقت [أي عند الاحتضار]، وقد وردت الأخبارُ بفضل حسن الظن بالله تعالى»[٥].

فينبغي على المريض - مع إحسان ظنه بالله تعالى- أن يكون بين الخوف والرجاء، يخاف عقابَ الله على ذنوبه، ويرجو رحمةَ ربه[٦]، وقد جاء في الحديث «**إن المؤمن تخرُج نفسُه من بين جنبْيه وهو يحمَد الله تعالى**»[٧]، ولعلّ ذلك لحُسن ظنِّه بربه سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، ح ٨١١٥، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٣٠٦ وصحَّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٢٢٤، ح ١٦٦٣.

(٢) سبق تخريجه عند الإحالة رقم (٥) الصفحة السابقة.

(٣) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها...، باب الأمر بحسن الظن بالله...، ح٢٨٧٧.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣/ ٣٨٥،٣٨٦.

(٥) الثبات عند الممات ص٧١.

(٦) انظر: أحكام الجنائز ص٧.

(٧) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢٧٣،٢٧٤، وصحَّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ١٧٣ ح ١٦٣٢.

ومما ينبغي أن يُعلم: أنه لا بد من حُسْنِ العمل مع إحسانِ الظنِّ، فلا معنى لحُسن الظن مع سوء العمل؛ إذ قد يمنعه سوءُ عمله من إحسان الظن بربه، وأسوأ مِنْ ذلك سوءُ الظن بالله مع سوء العمل؛ فإن قومًا أساؤوا الظن بالله، فقال لهم سبحانه وتعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

يقول ابن القيم: «ولا ريبَ أن حُسنَ الظنِّ إنما يكون مع الإحسان؛ فإن المحسن حَسَنُ الظنِّ بربه أن يجازيَه على إحسانه، ولا يُخلف وعدَه، ويقبل توبته، وأما المسيءُ المصرُّ على الكبائر والظلم والمخالفات؛ فإن وحشة المعاصي والظلم والحرمان تمنعه مِنْ حسن الظنِّ بربه، ولا يجامع وحشةَ الإساءة إحسانُ الظن أبدًا؛ فإن المسيء مستوحِشٌ بقدْر إساءته، وأحسنُ الناسِ ظنًا بربه أطوعُهم له...، وقد قال الله في حقِّ مَنْ شك في تعلُّق سمعِه ببعض الجزئيات، وهو السرُّ من القول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فهؤلاء لَمَّا ظنُّوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون كان هذا إساءةً لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظنُّ، فتأمَّل هذا الموضع وتأمَّل شدةَ الحاجة إليه، وكيف يجتمع في قلب العبد تيقُّنه بأنه ملاقي اللهَ، وأن الله يسمع ويرى مكانه ويعلم سرَّه وعلانيته، ولا يخفى عليه خافيةٌ من أمره، وأنه موقوف بين يديه، ومسؤول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخِطه، مضيِّعٌ لأوامره، مبطل لحقوقه، وهو مع هذا يحسن الظن به، وهل هذا إلا من خدَعِ النفوس وغُرور الأماني»[1].

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص١٤.

ويشهد لهذا: ما رواه أبو أمامة بن سهل، قال: دخلتُ أنا وعروةُ بن الزبير يومًا على عائشة، فقالت: لو رأيتما نبيَّ الله ﷺ ذاتَ يوم في مرض، وكان له عندي ستةُ دنانيرَ أو سبعة، فأمرني النبي ﷺ أن أفرِّقَها، فشغلني وجع النبي ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها، فقال: «**ما فعلت الستة، قال: أو السبعة؟**» قلت: لا والله، لقد كان شغلني وجعُك، قالت: فدعا بها، ثم صفَّها في كفِّه، فقال: «**ما ظنُّ نبيِّ الله لو لقِيَ الله عز وجل، وهذه عنده؟ يعني ستة دنانير أو سبعة- أنفِقِيها**»[1].

يقول ابن القيم تعليقًا على هذا الحديث: «فيالله ما ظنُّ أصحاب الكبائر والظَّلَمة بالله، إذا لقَوْه ومظالمُ العباد عندهم؛ فإن كان ينفعهم قولهم: حَسَّنَّا ظنوننا بك لم يعذب ظالم ولا فاسق، فليصنع العبدُ ما شاء، وليرتكب كلَّ ما نهاه الله عنه، وليُحسن ظنَّه بالله؛ فإن النار لا تَمَسُّه، فسبحان الله ما يبلغ الغرورُ بالعبد، وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧]؛ أي: ما ظنُّكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره. ومن تأمَّل هذا الموضع حقَّ التأمُّل علم أن حسنَ الظن بالله هو حسنُ العمل نفسه؛ فإن العبد إنما يحمله على حُسنِ العمل حسنُ ظنِّه بربه أن يجازيَه على أعماله، ويُثيبَه عليها، ويتقبَّلها منه؛ فالذي حملَه على العمل حسنُ الظن، فكلَّما حَسُنَ ظنُّه حَسُنَ عملُه، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٦/ ١٠٤ و٦/ ١٨٢، والبغوي في شرح السنة ٦/ ١٥٦، ١٥٧ وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ١٢، ح١٠١٤.

وبالجملة، فحُسن الظن إنما يكون مَعَ انعقادِ أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك، فلا يتأتَّى إحسان الظن»[١].

فإن قال قائل: بأن إحسان الظنِّ يتأتَّى مع سوء العمل، وذلك راجعٌ إلى سَعَة مغفرة الله ورحمته التي سبقت غضبه.

فالجواب عليه بأن يقال: «الأمر هكذا، والله فوقَ ذلك وأجلُّ وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محلِّه اللائق به؛ فإنه سبحانه موصوفٌ بالحكمة والعزة والانتقام، وشدَّة البطش، وعقوبة مَنْ يستحق العقوبة، فلو كان مُعَوَّلُ حسن الظن على مجرَّد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البَرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليُّه وعدوُّه، فما ينفع المجرمَ أسماؤه وصفاتُه وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرَّض لِلَعْنته، وأوقع في محارمه، وانتهك حُرماتِه، بل حسن الظن ينفع مَنْ تاب ونَدِمَ وأقلع، وبدَّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظن، فهذا حُسْنُ ظنٍّ، والأول غرور»[٢].

وقال الخطابي: «إنما يُحسِنُ بالله ظنَّ مَنْ حَسُنَ عمله، فكأنه قال: أحسِنوا أعمالَكم يَحْسُن بالله ظنكم؛ فإن مَنْ ساء عملُه ساء ظنُّه، وقد يكون حُسْنُ الظن أيضًا من ناحية الرجاء، وتأميلِ العفو، والله جوادٌ كريم»[٣].

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص١٤، ١٥.

(٢) المصدر السابق ص١٥.

(٣) معالم السنن بحاشية سنن أبي داود ٣/ ٤٨٤.

المبحث التاسع

تخيير الأنبياء عند الموت

روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما مِنْ نبيٍّ يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة**». وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذتْه بُحّةٌ شديدة، فسمعتُه يقول: ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، فعلمت أنه خُيّر»(١).

وعنها رضي الله عنها، قالت: «كنتُ أسمع أنه لا يموت نبيٌّ حتى يخيَّرَ بين الدنيا والآخرة، فسمعت النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه، وأخذته بُحّة، يقول: ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ﴾ الآية، فظننت أنه خُيِّر»(٢).

وفي رواية عنها، قالت: لَمَّا مرض النبي ﷺ المرضَ الذي مات فيه جعل يقول: «**في الرفيق الأعلى**»(٣).

وفي رواية أخرى قالت: «كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: «**إنه لم يُقبضْ نبيٌّ قط حتى يَرى مقعده مِنَ الجنة، ثم يُحيّا، أو يُخيّرَ**». فلما اشتكى وحضره القبضُ ورأسه على فخذ عائشة غُشيَ عليه، فلما أفاق شخَص بصرُه نحو سقف البيت، ثم قال: «**اللهم في الرفيق الأعلى**». فقلت: إذًا لا يختارنا، فعرفتُ أنه حديثه الذي كان يحدِّثنا وهو صحيح»(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾، ح٤٥٨٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ح ٤٤٣٥.

(٣) رواه البخاري، الموضع السابق، ح ٤٤٣٦.

(٤) رواه البخاري، الموضع السابق، ح ٤٤٣٧، وانظر ٤٤٣٨ و٤٤٤٠ و٤٤٥١، وانظر: مجموع هذه الروايات وغيرها في جامع الأصول ١١/ ٣٨١-٣٨٩.

فمعنى قوله ﷺ «**ما مِنْ نبيٍّ يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة**»؛ أي: خيَّره الله تعالى بين الإقامة في الدنيا والموت؛ «لتكون وفادتُه على الله وفادةَ محبٍّ مخلصٍ مبادرٍ، ولتقاصُر المؤمن عن يقين النبي ﷺ تولَّى الله الخِيرةَ في لقائه؛ لأنه وليُّه؛ ألا ترى إلى خبر «**ما ترددتُ في شيءٍ ترددي في قبض روح عبدي المؤمن**»[١]، ففي ضمن ذلك اختيار الله للمؤمن لقاءه؛ لأنه وليُّه، يختار له فيما لا يصل إليه إدراكه»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: «**إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبدُ ما عند الله**». قال: فبكى أبو بكر، فعجِبنا لبكائه أن يخبرَ رسول الله عن عبد خُيِّر، فكان رسولُ الله ﷺ هو المخيَّرَ، وكان أبو بكر أعلمَنا، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً غيرَ ربِّي لاتخذتُ أبا بكر، ولكن أخوّةُ الإسلام ومودَّتُه، لا يبقيَنَّ في المسجد باب إلا سُدَّ إلا بابَ أبي بكر**»[٣].

قال ابن حجر: «فَهْمُ عائشة من قوله ﷺ «**في الرفيق الأعلى**» أنه خُيِّر، نظيرُ فَهْم أبيها ﷺ من قوله ﷺ «**إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبدُ ما عند الله**» أن العبد المراد هو النبيُّ ﷺ حتى بكى»[٤].

وقال بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ): «قول (خُيِّر) على صيغة المجهول؛ أي:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، ح ٦٥٠٢.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥/ ٥٠١.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ «**سدّو الأبواب إلا باب أبي بكر**»، ح٣٦٥٤.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ١٣.

خُيِّر بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ﷺ»[١].

هذه الأحاديث الصحيحة تدل على أنه ما مِنْ نبيٍّ يمرض إلا خُيِّر بين البقاء في الحياة الدنيا والموت.

وقد ثبت أن ملك الموت عليه السلام جاء إلى موسى عليه السلام فخيَّره بين الموت والحياة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**جاء ملك الموت إلى موسى، فقال له: أجِبْ ربَّك، قال: فلطم موسى عينَ ملَك الموت ففقأها، قال: فرجع الملَك إلى الله عز وجل، فقال: إنك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، قال: فردَّ إليه عينه، قال: ارجِعْ إلى عبدي، فقل له: الحياةَ تريد؟ فإن كنتَ تريد الحياة، فضع يدك على متْنِ ثورٍ. فما وارَت يدُك مِنْ شعرٍ، فإنك تعيشُ بها سنةً، قال: ثم مَهْ؟ قال: ثم تموتُ، قال: فالآن مِنْ قريب، قال: ربِّ أدْنِني من الأرض المقدسة رميةً بحجر، قال رسول الله ﷺ: لو أني عنده لأريتُكم قبرَه إلى جانب الطريق عندَ الكَثِيب الأحمر**»[٢].

هذا الحديث ثابت، وقد أنكره بعض المبتدعة قائلين: إنْ كان موسى عليه السلام عرفَه، فقد استخفَّ به، وإن كان لم يعرِفْه، فلماذا لم تقتص له مِنْ فَقْءِ عينه؟

قال بعض أهل العلم: إن الله لم يبعث ملَكَ الموت لموسى، وهو يريدُ قَبْضَ روحه حينئذٍ، وإنما بعثه إليه اختبارًا، فلطمه موسى عليه السلام؛ لأنه رأى آدميًا

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١٨/ ١٧٨.

(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، ح ٣٤٠٧ ورواه مسلم، في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه الصلاة والسلام، ح ٢٣٧٢.

داخلَ دارِه بغير إذنه، ولم يعلم أنه ملَكُ الموت، فقد جاء في رواية: (**كان ملك الموت يأتي الناسَ عيانًا، فأتى موسى فلطمَه**)[١]، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيمَ وإلى لوطٍ في صورة البشر، فلم يعرفاهم ابتداءً، وقد أباح الشارعُ فَقْءَ عين الناظر في دار المسلم بغير إذنه، كما جاء في الحديث: «**مَنِ اطَّلع في بيت قومٍ بغير إذنهم، حلَّ لهم أن يفقؤوا عينَه**»[٢]، وعلى فرْض أنه عرفه. فلا دليلَ على مشروعية القصاص بين الملائكة والبشر، ولا دليلَ على أنَّ ملَك الموت طلب القصاص من موسى، فلم يقتصَّ له، ثم ردَّ الله عينَ ملك الموت، ليعلم موسى أنه جاءه مِنْ عند الله. فلهذا استسلم حينئذ[٣].

ونقل النووي أنه لا يمتنع أن يأذَن الله لموسى في هذه اللطمة امتحانًا للملطوم[٤].

وقال ابن حجر: «وقال غيره [أي: غير النووي]: إنما لطمه؛ لأنه جاء لقبض روحه من قبل أن يخيِّرَه، لِمَا ثبت أنه لم يُقبض نبيٌّ حتى يخير، فلهذا لَـمَّا خيَّره في المرة الثانية أذعن. قيل: وهذا أوْلى الأقوال بالصواب، وفيه نظر؛ لأنه يعود أصل السؤال، فيقال: لِـمَ أقدم ملك الموت على قبض نبي الله وأخلَّ بالشرط؟ فيعود الجواب أن ذلك وقع امتحانًا. وزعم بعضُهم أن معنى قوله: (فقأ عينه)؛ أي: أبطل حُجَّته، وهو مردودٌ بقوله في نفس الحديث (**فرد الله عينه**)، وبقوله (**لطمه وصكّه**)،

---

(١) رواه الإمام أحمد ٢/ ٣١٥ وقال: سنده صحيح على شرط مسلم، انظر صحيح الجامع الصغير ١/ ٢١٧ في الحاشية، وكذا قال الحاكم قبله في المستدرك ٢/ ٥٧٨.

(٢) رواه مسلم في كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، ح٢١٥٨.

(٣) انظر: شرح السنة ٥/ ٢٦٦، ٢٦٧، وفتح الباري ٦/ ٤٤٢ وسنن النسائي بشرح السيوطي ٤/ ١١٨-١١٩ وصحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٢٩، والبداية والنهاية ١/ ٢٩٦.

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٢٩.

وغير ذلك من قرائن السياق، ورَدَّ الله إلى ملك الموت عينه البشرية؛ ليرجع إلى موسى على كمال الصورة، فيكون ذلك أقوى في اعتباره»[١].

وكذا ذكر المناوي (ت ١٠٣١هـ) أن موسى عليه السلام لطم الملك عليه الصلاة والسلام لمَّا جاءه؛ لكونه لم يخيَّر قبل ذلك[٢].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/ ٤٤٢،٤٤٣.

(٢) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥/ ٥٠١.

(١) ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/٣١٣، ٣١٤.

(٢) ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤/٢٠٥.

المبحث العاشر

الأعمال بالخواتيم

المطلب الأول: الأدلة على أن الأعمال بالخواتيم

ذكر البخاري في كتاب القدر من صحيحه (باب العمل بالخواتيم) وساق بسنده حديثين عن رسول الله ﷺ؛ أحدهما: «عن سهل بن سعد أن رجلاً من أعظم المسلمين غناءً عن المسلمين في غزوةٍ غزاها مع النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ فقال: «**مَنْ أحب أن ينظرَ إلى رجلٍ مِنْ أهل النار، فلينظرْ إلى هذا.** فاتَّبعه رجلٌ مِنَ القوم، وهو على تلك الحال مِنْ أشدِّ الناس على المشركين، حتى جُرح، فاستعجل الموت، فجعل ذُبابةَ سيفه بين ثدييْه حتى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى النبي ﷺ مسرعًا، فقال: أشهد أنك رسولُ الله، فقال: وما ذاك؟ قال: قلت لفلان: من أحبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظرْ إليه، وكان مِن أعظمنا غناءً عن المسلمين، فعرفتُ أنه لا يموت على ذلك، فلما جُرح استعجل الموت، فقتل نفسَه، فقال النبي ﷺ عند ذلك: **إن العبدَ ليعملُ عملَ أهل النار، وإنه مِنْ أهل الجنة، ويعملُ عملَ أهل الجنة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم**»[1].

وفي موضع آخر ذكر البخاري (باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها)، وذكر فيه الحديث السابق عن سهل بن سعد الساعدي، وفيه قوله ﷺ: « **إن العبد ليعمل - فيما يرى الناس- عملَ أهل الجنة، وإنه لمن أهل النار، ويعمل - فيما يرى الناس- عمل أهل النار وإنه لمن أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم** »[2].

قال ابن بطَّال: «في تغييب الله عن عباده خواتيمَ أعمالهم حكمةٌ بالغة، وتدبيرٌ

---

(١) رواه البخاري، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، ح ٦٦٠٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها، ح ٦٤٩٣.

لطيف؛ وذلك أنه لو علم أحدٌ خاتمةَ عمله لدخل الإعجابُ والكسلُ بمَن علِم أنه يُختم له بالإيمان، ومَنْ علم أنه يُختم له بالكفر يزداد غَيًّا وطُغيانًا وكفرًا، فاستأثر اللهُ تعالى بعلم ذلك؛ ليكون العبادُ بين خوفٍ ورجاءٍ، فلا يُعجب المطيع لله بعمل، ولا ييأس العاصي مِنْ رحمته، ليقع الكلُّ تحت الذل والخضوع والافتقار إليه»[١].

وروى عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم أو الرجل ليعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غيرُ باعٍ أو ذراعٍ، فيسبِقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غيرُ ذراع أو ذارعين، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلها**»[٢].

يخبر الرسول ﷺ في هذا الحديث أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ؛ لقُرب أجله ووفاته، فيسبق عليه الكتاب الأول، الذي كُتب أنه من أهل النار، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وقد دلَّ الحديث السابق ذكرُه، وهو: «**إنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو مِنْ أهل النار**»على أن عملَه بعمل أهل الجنة هو فيما يبدو للناس وليس حسنًا، وكذلك الرجل الثاني الذي يعمل بعمل أهل النار، فيَمُنُّ الله عليه بالتوبة والرجوع إلى الله عند قُرب أجله، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها، ومَنْ أحسن العمل في قلبه وظاهرِه؛ فإن الله تعالى لا يُضيع أجرَه[٣]، قال تعالى:

---

(١) شرح صحيح البخاري ١٠/ ٢٠٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب القدر، باب (١) في القدر، ح ٦٥٩٤.

(٣) انظر: فتاوى الشيخ محمد الصالح العثيمين ١/ ٧١.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال ابن دقيق العيد: «وأما الحديث: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو مِنْ أهل النار**»؛ فإنه لم يكن عملُه صحيحًا في نفسه، وإنما كان رياءً وسُمعةً، وقوله ﷺ: «**فوالذي لا إله غيرُه، إن أحدَكم ليعمل بعمل أهل الجنة**.. إلى قوله: **فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلَها**» المراد: أن هذا قد يقع في نادرٍ مِنَ الناس، لا أنه غالبٌ فيهم، وذلك مِن لطف الله سبحانه وسَعة رحمته؛ فإن انقلاب الناس من الشرِّ إلى الخير كثير، وأما انقلابهُم مِنَ الخير إلى الشر، ففي غاية النُّدور، ولله الحمد والمنة على ذلك»[(١)].

فقوله ﷺ: «**وإنَّ أحدَكم ليعمل بعمل أهل الجنة**... إلخ» ظاهرُ الحديث يدل على أن هذا العامل كان عملُه صحيحًا، وأنه قرب من الجنة بسبب عمله، حتى بقي له على دخولها ذراعٌ، وإنما منعه من ذلك سابقُ القدر الذي يظهر عند الخاتمة؛ فإذًا الأعمال بالسوابق، لكن لَمَّا كانت السابقةُ مستورةً عنا، والخاتمة ظاهرةً، جاء في الحديث: (**إنما الأعمال بالخواتيم**)؛ يعني: عندنا، بالنسبة إلى اطِّلاعنا في معنى الأشخاص، وفي بعض الأحوال»[(٢)].

وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تُعجَبوا بعمل أحدٍ حتى تنظروا بما يُختمُ له؛ فإن العامل يعمل زمانًا مِنْ دهره، أو بُرهةً مِنْ دهره بعملٍ صالحٍ، لو مات عليه دخل الجنة، ثم يتحوَّل، فيعمل عملاً سيئًا، وإن العبد ليعمل زمانًا من**

---

(١) شرح الأربعين النووية ص٢٢، ٢٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٢٢.

دهره بعملٍ سيّئٍ، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحوَّل، فيعمل عملاً صالحًا، وإذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله قبل موته، فوفَّقه لعمل صالح، ثم يقبضُه عليه»[(١)].

وفي رواية أخرى عنه ﷺ أنه قال: « إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله». فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟! قال: (يوفِّقُه لعمل صالح قبل الموت)»[(٢)].

وروى الإمام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا أراد الله بعبد خيرًا عَسَلَه). فقيل: وما عَسَلَه؟ قال: (يفتح له عملاً صالحًا قبل موته، ثم يقبضه عليه)[(٣)].

نخلُص مما مضى إلى أن الشقاوة والسعادة قد سبق بهما الكتاب الأول، وأنهما مقدَّرتان بحسب خواتم الأعمال، وكلٌّ ميسَّر لِمَا خُلق له، ومن مات على شيء حُكم له به من خير أو شرٍّ، مع الجزم بأن أصحاب الكبائر غير الكفار تحت المشيئة.

المطلب الثاني: حسن الخاتمة وأبرز علاماتها

حسن الخاتمة هو أن يموت العبد على حال ترضي الله سبحانه وتعالى، وقد دل كتاب الله تعالى على أهمية حسن الخاتمة، في آيات؛ منها: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، فلا بد من الالتزام

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٣/ ١٢٠ و١٢٣ و ٢٣٠و ٢٥٧، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٣٢٣، ح ١٣٣٤، ثم قال: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتابًا لأهل الجنة وأهل النار، ح٢١٤٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٤٤٥، ح ٢١٤٢، وقال: صحيح.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٢٢٤ و٤/ ٢٠٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ١/ ١١٧، ح٣٠٧، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ١٠٧-١٠٨، ح ١١١٤.

بالعبادة والتقوى حتى الموت؛ فإنَّ ذلك من أعظم أسباب حسن الخاتمة.

ولا شك أن من أعظم أسباب حسن الخاتمة الحرصَ على سلامة العقيدة مما قد يشُوبُها من البدع والضلالات، وسؤالَ الله تعالى أن يحسن الخاتمة، ويميتَ على الإيمان والتقوى، مع إخلاص النية في جميع الأعمال لله تعالى، وإصلاح الأعمال، وجعلها تبعًا لِمَا جاء به الرسول ﷺ، والمبادرةَ إلى التوبة النصوح من كل مخالفة.

ولحسن الخاتمة علامات دلَّت عليها نصوص الكتاب والسنة، وذكرها بعض أهل العلم؛ ومن ذلك:

١- أن يكون آخرَ كلامه من الدنيا (لا إله إلا الله)؛ لقوله ﷺ: «**من كان آخرَ كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(١).

٢- الموت بَرشْح الجبين؛ لقوله ﷺ: «**المؤمن يموت بعَرَق الجبين**»(٢).

٣- الاستشهاد في ساحة القتال من أجل إعلاء كلمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]. وقوله ﷺ: «**للشهيد عند الله**

---

(١) سبق تخريجه ص٩٠.

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء أن المؤمن يموت بعرق الجبين، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ١/ ٥٠٢، ح٩٨٢.

ستُّ خصال: يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعدَه مِنَ الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن الفَزَع الأكبر، ويُحلَّى حِليةَ الإيمان، ويُزوَّج مِنَ الحور العين، ويُشفَّع في سبعين إنسانًا من أقاربه»[١].

٤- الموت في الغزو في سبيل الله لقوله ﷺ: «**من تعدون الشهيد فيكم؟**» قالوا: يا رسول الله من قتل في سبيل الله فهو شهيد، قال: «**إن شهداء أمتي إذًا لقليل**»، قالوا: فمن هم يا رسول الله، قال: «**من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغريق شهيد**»[٢].

٥- الموت بداء البطن، لقوله ﷺ في الحديث السابق: «... **ومن مات في البطن فهو شهيد**»[٣].

٦- الموت بالطاعون؛ لقوله ﷺ: «**والطاعون شهادةٌ لكل مسلم**»[٤].

٧- و٨- الموت بالغرق، وكذلك بالهدْم؛ لقوله ﷺ: «**الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدْم، والشهيد في سبيل الله**»[٥].

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٤٠، ح ١٦٦٣، وسلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ٣٢١٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء ص١٩١٥.

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

(٤) رواه البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ح٥٧٣٢، ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، ح ١٩١٦.

(٥) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، ح١٩١٤.

٩ و١٠ و١١- الموت بالحرق، وبذات الجَنْب[١]، وموت المرأة في نفاسها بسبب ولدها؛ لما رواه جابر بن عَتيك مرفوعًا: (**الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجَنْب شهيد، والمبطون شهيد، والحرق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمع[٢] شهيدة**»[٣].

١٢- الموت بداء السُّلَ؛ لقوله ﷺ: «**القتل في سبيل الله شهادة، والنَّفَساء شهادة، والحرق شهادة، والغرق شهادة، والسُّلُّ شهادة، والبطن شهادة**»[٤].

١٣ و ١٤ و١٥ و١٦- الموت في سبيل الدفاع عن الدين والنفس والأهل، والمال المرادُ غصبُه، لقوله ﷺ: «**مَنْ قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد**»[٥].

١٧- الموت رباطًا في سبيل الله تعالى؛ لحديث «**رباطُ يوم وليلة خيرٌ مِنْ صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عملُه الذي كان يعملُه، وأجري عليه**

---

(١) وهي الدُّمَل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب، وتنفجر إلى داخل، كما في النهاية ص١٦٨.

(٢) أي تموت وفي بطنها ولد، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ص١٦٤.

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ ١/ ٢٣٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، باب ما يرجى فيه الشهادة، ح ٢٨٠٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح ٣٧٣٩.

(٤) ذكره السيوطي في الجامع الصغير، وقال عنه الألباني: (حسن)، ونسبه إلى الدارمي والطيالسي، انظر: صحيح الجامع الصغير ٢/ ٨١٧، ح ٤٤٣٩.

(٥) رواه الترمذي في سننه، كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ١١٣، ح ١٤٢١.

رزق، وأمِنَ الفَتَّان»[١].

١٨- الموت على عمل صالح؛ لقوله ﷺ: «مَنْ قال: لا إله إلا الله ابتغاءَ وجه الله خُتم له بها، دخل الجنةَ، ومن صام يومًا ابتغاءَ وجه الله خُتم له بها، ودخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاءَ وجه الله، خُتم له بها، دخل الجنة»[٢].

١٩- من قام إلى إمامٍ جائرٍ فأمره ونهاه، فقتله الإمام الجائر؛ لحديث: «الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه، فقتله»[٣].

٢٠- وعدَّ بعضُ أهل العلم من علامات حسن الخاتمة: الموتَ ليلةَ الجمعة، أو نهارها؛ لِمَا ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِنْ مسلم يموت يومَ الجمعة، أو ليلةَ الجمعة إلا وقاه الله فتنةَ القبر»[٤].

٢١- الثناء بالخير على الميت في جَمْع من المسلمين الصادقين ذوي الصلاح والعلم؛ لقوله ﷺ: «أيما مسلم شهد له أربعةٌ بخير أدخله الله الجنة». قلنا: وثلاثة، قال: و«ثلاثة»، قلنا واثنان: قال: و«اثنان» ثم لم نسألْه في الواحد[٥].

٢٢- أن يموت محرمًا بحجٍّ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً كان واقفًا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله ح ١٩١٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٣٩١، وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص٥٨.

(٣) رواه الحاكم في مستدركه ٣/ ١٩٥، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٦٨، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٧١٧،٧١٨ وقال: (اطمأن القلب لثبوت الحديث).

(٤) رواه الترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء فيمن مات يوم الجمعة، ح١٠٧٤، وقال عنه الألباني: (حديث حسن) وذكره في صحيح سنن الترمذي ١/ ٥٤٥، ح ١٠٧٤.

(٥) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل كم يجوز، ح ٢٦٤٣.

مع رسول الله ﷺ بعرفة، فأوقصته راحلته وهو محرم فمات، فقال رسول الله ﷺ: **«اغسلوه بماء وسدرٍ، وكفِّنوه في ثوبيه، ولا تخمِّروا رأسه ولا وجهه؛ فإنه يُبعث يوم القيامة ملبيًا»**[١].

المطلب الثالث: سوء الخاتمة وأبرز أسبابها

تبيَّن مما سبق أن بعض الناس يعملون بعمل أهل الجنة، فيسبِقُ عليهم الكتاب، فيُختم لهم بخاتمة سيئة، وقد يظهر على بعض المحتضرين علاماتٌ تدلُّ على سوء خاتمتهم؛ مثل الامتناع عن النطق بلا إله إلا الله، أو التحدُّث بالمحرَّمات، وترديد السيئات، وإظهار التعلق بالمنكرات، ونحو ذلك، وقد ذكر بعض أهل العلم أسبابًا للخاتمة السيئة؛ منها:

١- الانحراف في العقيدة: فإنه مظِنَّةُ سوءِ الخاتمة، أما فساد العقيدة، فقد أخبر الله تعالى عن هلاك من يكفر بآيات الله ولقائه، وإن عملوا الصالحات، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦]، وهذه الآيات -كما يقول ابن كثير-: «عامَّةٌ في كل مَنْ عبد الله على غير طريقةٍ مرضيَّة، يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود»[٢]، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات، ح ١٢٠٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٠٤، ١٠٥.

يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٢-٤]، وقوله: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨] أي إن عملَهم يبطُل ويُحبَط، فيصير كالهباء والسراب والرماد، ومع ذلك فهم يعتقدون أن عملهم حسنٌ مقبولٌ عند الله[١].

٢- ضعف الإيمان: المتضمن لحب الدنيا والرُّكون إليها، وطُول الأمل، فإن من يضعُف إيمانه يضعُف حبُّ الله تعالى في قلبه، ويقوَى فيه حبُّ الدنيا، ويستولي عليه، فإذا حضر الموت، فقد يزداد حبُّ الله ضعفًا في قلبه لِمَا يرى أنه يفارق الدنيا، محبوبته التي يفارقها، بل قد ينقلب ذلك الحبُّ الضعيف بُغضًا، فيختم له بخاتمة سوء، ولهذا يقول ابن كثير: «والمقصود أنَّ الذنوب والمعاصي والشهوات تخذُل صاحَبها عند الموت، مع خُذلان الشيطان له، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان، فيقع في سوء الخاتمة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٩]، بل قد وقع سوء الخاتمة لخلق لم يفعلوا فاحشةَ اللواط، وقد كانوا متلبِّسين بذنوبٍ أهونَ منها، وسوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا يقع فيها من صلَح ظاهرُه وباطنه مع الله وصدَق في أقواله وأفعاله؛ فإن هذا لم يُسمع به»[٢].

---

(١) انظر: أضواء البيان في إضاح القرآن بالقرآن ٤/ ١٩١.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ١٧٠.

٣- الإصرار على المعاصي؛ كالتهاون في أركان الإسلام وواجباته، والاستمرارِ على فِعْل المحرمات كشرب الخمر، وعقوق الوالدين، وأذى المسلمين، قال السيوطي: «قال بعض العلماء: الأسباب المفضية لسوء الخاتمة، والعياذ بالله، أربعة: التهاون بالصلاة، وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، وأذى المسلمين»[١].

ومن المعلوم أن مَنْ يُصرُّ على المعاصي يألَفُها، وما يألَفُه الإنسان في حياته يعود ذكره عند موته، فإنْ أَلِفَ الطاعات في عمره كان أكثر ما يحضره عند الموت ذكر الطاعات، وإن أَلِفَ المعاصي والمحرمات كانت أكثرَ ما يحضره عند تلك الساعة الحرجة، ومِنْ ثَمَّ، فقد تغلِب عليه شهوة من الشهوات والمخالفات عند نزول الموت به، فيختم له بخاتمة سيئة، قال ابن القيم: «ولهذا - والله أعلم- كثيرًا منا يعرض للعبد عند موته لَهَجُه بما يحبه، وكثرةُ ذكره له، وربما خرجت روحُه وهو يلهَج به»[٢].

وقال ابن كثير: «وإنما يقع سوء الخاتمة لمن فسَد باطنُه عقدًا، وظاهره عملاً، ولمن له جرأة على الكبائر، وإقدام على الجرائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة»[٣]، فيجب على كل مسلم أن ينزِّه نفسَه عن المعاصي، وأن يبتعد عن الكبائر، وأن يحذَر من التسويف بالتوبة، بل يسارع إليها، فالتوبة تَجُبُّ ما قبلهَا.

---

(١) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور ص٢٧.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٣٠٨، وانظر: كتاب الكبائر للذهبي ص٩١.

(٣) البداية والنهاية ٩/ ١٧٠.

٤- العدول عن الاستقامة؛ فإنَّ مَنْ كان مستقيمًا على شرع الله تعالى ثم تحوَّل عنه، وحصل منه مخالفات ووقوعٌ في المحرمات، فإنه معرَّض لسوء الخاتمة، والعياذ بالله، كبلعام بن باعورا، الذي آتاه الله آياتِه فانسلخ منها بإخلاده إلى الدنيا، واتَّبع هواه، وكان من الغاوين، وكَبَرْصيصا العابد الذي قال له الشيطان: اكفر، فلمَّا كفر، قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإن الشيطان أغراه على الكفر، فلمَّا كفر تبرَّأ منه مخافةَ أن يشارِكَه العذاب، ولم ينفعْه ذلك[1]، كما قال تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧].

---

(١) انظر: يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار ص٢١٢، وانظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٤١ وللاستزادة ينظر مختصر منهاج القاصدين ص ٣٣٨، ٣٤٠ والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٧٢، ٧٣.

الخاتمة

الحمد لله الذي أعان على إتمام هذا البحث، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

وبعد: فقد تبيّن لنا من المباحث السابقة مسائل مهمة؛ منها:

أولاً: أنَّ للموت سكراتٍ وكُرَبًا وشدائدَ عظيمةً، تصيب المحتضر؛ بسبب نزْع روحه، وأن هذه السكراتِ حاصلة لكل مخلوق، كما دلت عليه النصوص الشرعية، من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، إلا أنها تشتدّ على الكافر، وتُيَسَّر على المؤمن، وقد تشتدُّ على المؤمن تكفيرًا لسيئاته، أو رفعًا لدرجاته.

ثانيًا: أن لملك الموت أعوانًا من الملائكة تُعينه على قبض روح المحتضر، فتبشِّر المؤمن برضوان الله ورحمته حين الاحتضار، فيفرح بذلك، كما أن الملائكة تضرب وجوه الكفار وأدبارَهم حين نزْع أرواحهم، وتبشِّرهم بعذاب الحريق.

ثالثًا: أن التوبة تنقطع إذا حضر الموتُ، وحينئذ يتمنَّى المحتضرُ الرجعةَ إلى الدنيا؛ إن كان كافرًا ليؤمن ويتَّبع؛ وإن كان صالحًا ليزداد من الأعمال الصالحة.

رابعًا: أن الشيطان يحضر عند العبد في شأنه كلِّه؛ لإغوائه وإضلاله، ومن ذلك حضورُه عند الاحتضار، في ذلك الوقت الذي هو أحوجُ ما يكون إلى السلامة من وساوسه وشُروره، فعلى المؤمن أن يتحصَّن منه بالإيمان والعمل الصالح في وقت الإمهال وقبل حضور الموت.

خامسًا: مشروعية تلقين المحتضر: لا إله إلا الله؛ ليكون آخرَ كلامه من الدنيا نطقُه بشهادة التوحيد، وفي ذلك أعظم الأسباب لدخول الجنة.

سادسًا: وجوب إحسان الظن بالله تعالى في جميع الأحوال، ويتأكد ذلك عند حضور الموت، وإنما يُحسن بالله الظنَّ مَن حَسُن عملهُ.

سابعًا: ثبت في الحديث الصحيح أنه ما مِنْ نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة.

ثامنًا: أن الأعمال بالخواتيم، فعلى المسلم أن يتعرَّف إلى أسباب حُسن الخاتمة؛ ليعمل بها وينهجَها، ويتعرف إلى أسباب سوء الخاتمة ليحذرَها ويتجنَّبها.

المصادر والمراجع

١- أحكام الجنائز، محمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض، ١٤١٢هـ.

٢- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، المطابع الأهلية، الرياض، ١٤٠٣هـ.

٤- الاستعداد للموت وسؤال القبر، زين الدين بن علي المعبري، مكتبة التراث الإسلامي، مصر.

٥- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مطبعة كروستان، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٨هـ.

٦- بذل المجهود في حل أبي داود، خليل أحمد السهانفوري، دار اللواء، الرياض.

٧- تجريد أسماء الصحابة، شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، دار المعرفة، بيروت.

٨- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أبي بكر القرطبي، دار البخاري، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٩- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ

١٠- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.

١١- الثبات عند الممات، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٢- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٣- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ.

١٤- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥- حاشية السندي على سنن النسائي، أبو الحسن السندي، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

١٦- حسن الظن بالله، ابن أبي الدنيا، مكتبة القرآن، القاهرة.

١٧- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، المطابع الأهلية، الرياض، ١٤٠٣هـ.

١٨- الزهد، أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٩- الزهد، عبد الله بن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ.

٢١- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٢٢- سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة، دار الدعوة، إستانبول ١٤٠١هـ.

٢٣- سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٢٤- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٢٥- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

٢٦- شرح الأربعين حديثًا النووية، ابن دقيق العيد، مؤسسة الطباعة، جدة، ١٤٠٣هـ.

٢٧- شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ

٢٨- شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

٢٩- شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف ابن بطال، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٠- صحيح ابن حبان، تحقيق محمد حمزة، دار الكتب العلمية.

٣١- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٣٢- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٣٣- صحيح سنن ابن ماجة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣٤- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٥- صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٦- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٣٧- صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، نشر وتوزيع إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٣٨- ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتب المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٩- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر، بيروت.

٤٠- طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤١- العاقبة، أبو محمد عبد الحق الإشبيلي، مكتبة العجيري، الكويت، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ.

٤٢- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٤٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.

٤٤- الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

٤٥- الفوز العظيم في لقاء الكريم، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٤٦- فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.

٤٧- القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد الصالح العثيمين، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٤٨- كتاب الكبائر، الإمام الذهبي، المكتبة الثقافية، بيروت.

٤٩- كتاب الموت، سكرات الموت وشدته، أبو حامد الغزالي، مكتبة القرآن، القاهرة.

٥٠- لسان العرب المحيط، ابن منظور، دار لسان العرب، بيروت.

٥١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب ابن قاسم، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٥٢- مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، مؤسسة علوم القرآن، بيروت ١٣٩٨هـ.

٥٣- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله النيسابوري الحاكم، مكتبة النصر الحديثة، الرياض.

٥٤- المسند، أحمد بن حنبل الشيباني، دار الدعوة، إستانبول ١٤٠١هـ.

٥٥- مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

٥٦- مصائب الإنسان من مكائد الشيطان، أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن مفلح المقدسي، نشر علي رحمي- دار مرجان- مصر.

٥٧- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

٥٨- معالم السنن، شرح على سنن أبي داود، أبو سليمان الخطابي، دار الدعوة، إستانبول ١٤٠١هـ.

٥٩- مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الأندلس، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٦٠- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦١- الموطأ، مالك بن أنس، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠١هـ.

٦٢- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٦٣- وصايا العلماء عند الموت، أبو سليمان الربعي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٦٤- يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار، صديق حسن خان، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد:	٩
تعريف الاحتضار	١١
تعريف الموت	١١
تعريف الوفاة	١٢
الموت حق لازم لكل مخلوق	١٣
المبحث الأول: سكرات الموت وغمراته	١٥
المطلب الأول: تعريف السكرات والغمرات	١٧
المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة على سكرات الموت	١٨
أولاً: الأدلة من كتاب الله	١٨
ثانيًا: الأدلة من السنة والأثر	٢٤
المطلب الثالث: سكرات الموت تحصل لكل المخلوقات	٢٧
المبحث الثاني: وصف حال توفي الملائكة الكفار	٣٣
المبحث الثالث: حضور الملائكة مع ملك الموت وتبشيرهم المحتضر	٤١
المطلب الأول: مع مَلَك الموت ملائكة يعاونونه في قبض الروح	٤٣
المطلب الثاني: بشارة الملائكة المؤمن برضوان الله، وفرحه بذلك	٤٤
المطلب الثالث: بشارة الملائكة الكافر بالعذاب	٥٣
المبحث الرابع: انقطاع التوبة بحضور الموت	٥٧
المبحث الخامس: سؤال الرجعة إلى الدنيا عند الاحتضار	٧١
المبحث السادس: حضور الشيطان حين الاحتضار	٧٩

الموضوع	الصفحة
المبحث السابع: مشروعية تلقين المحتضر لا إله إلا الله، وقول الخير عنده	٨٧
المبحث الثامن: وجوب إحسان الظن بالله تعالى، وبخاصة عند الموت	٩٧
المبحث التاسع: تخيير الأنبياء عند الموت	١٠٥
المبحث العاشر: الأعمال بالخواتيم	١١٣
المطلب الأول: الأدلة على أن الأعمال بالخواتيم	١١٥
المطلب الثاني: حسن الخاتمة وأبرز علاماتها	١١٨
المطلب الثالث: سوء الخاتمة وأبرز أسبابها	١٢٣
الخاتمة	١٢٧
المصادر والمراجع	١٢٩
فهرس الموضوعات	١٣٥